

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــ 82 ـــدد

01 تموز 2022

نحو خطاب قومي جديد/
الذكرى الـ10 لرحيل ناجي علوش.



نحو مشروع للنّهوض القومي



طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــ 82 ـــدد

01 تموز 2022

محتويات العدد 82 من مجلة طلقة تنوير:

الصفحة

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 82
01 تموز 2022



على عتبة نظام متعدد الأقطاب

بشار شخاترة



حين تشيخ السدود، يعلم الماء جيداً من أين يتسرب من ثنايا أدق الشقوق. ترشح قطرات الماء عبرها متكاثرة كلما اتسعت الشقوق، وكلما زادت الصدوع في جسد السد، اقترب الانهيار وعجل بالطوفان. الدول والإمبراطوريات تنهار بذات الطريقة، ولكن ما أن تأذن شمس إمبراطورية بالغروب إلا وكانت تلوح أشعة شمس جديدة تشرق خجولة من بعيد لا تكاد ترى لها ظلالاً. لا تنهار الدول دفعة واحدة أو بشكل مفاجئ، إنما يتضعضع بنيانها رويداً رويداً، تتكاثر فيها عوامل الهدم برتابة وانتظام، وهذه العوامل هي قرارات وأحداث وحروب تنشأ عن وعي وإدراك أغلب الأحيان، وتسير في سياقها الدول باختيارٍ تامٍ على أساس أنها تصب في المصلحة، ولكن صيرورة الأحداث وتفاعلاتها تنتج واقعاً مغايراً، فبعض العوامل تبدو تافهة ولا تحدث فرقاً، ولكن تضافر تلك العوامل يخلق حالة الضعف والتراجع، وصولاً إلى الانهيار أو التراجع على الأقل.

في العلوم الطبيعية، الفعل ورد الفعل مقنن بقاعدة أن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار معاكس له في الاتجاه، وهذه القاعدة تكتسب بعض الصحة في الحقل الاجتماعي السياسي والاقتصادي الحيوي الإنساني، لكن فيها قول، فالفعل السياسي أو الاقتصادي في بيئة اجتماعية قطرية أو دولية عالمية ليس بالضرورة أن يعاكس في الاتجاه ويساوي في المقدار، وذلك لأن رد الفعل الصادر عن المتلقي، وهو بالضرورة دول أو كيانات، لكنها اجتماعية حيوية تتفاعل مع الحدث



وتبدي ردود أفعال لا يمكن أن نتنبأ بها، لأنها تأتي من خلفيات متنوعة الثقافة والمعرفة والتاريخ، وحتى الأيديولوجيا، لهذا تأتي ردود الفعل بشكلٍ حادٍ أو بسيط أياً كان، لكن مع مرور الوقت يبدي ردوداً تراكمية، وفيما يشبه المتوالية الهندسية التي تغزل على منوال الفعل المنعكس والذي نلاحظه حدثاً كبيراً وبروزاً لحالة أو نظام أو اتجاه عام يقف في مواجهة الواقع القائم، ونقصد هنا الواقع الدولي الذي يهيمن عليه قطب أو اتجاه واحد.

ونحن على أعتاب عالمٍ جديدٍ، بدأ مخاض الولادة من سفوح قاسيون الشام. ليس من قبيل المبالغة أو التفاخر، ولكن من قبيل الوصف لحالة عالمية جديدة، نبتت بذرتها عندما فشل مشروع الإكسير الإمبراطوري الأمريكي الإمبريالي على أرض الشام. أعوام مضت على الحرب الإمبريالية الغربية وأذنابها على سورية صمدت فيها سورية بشكلٍ استثنائيٍ وأسطوري. كانت سورية تخوض حرباً ضروساً والعالم ينتظر خطابات النصر الأمريكية التي اعتاد عليها العالم بعد كل حرب أمريكية خلال العقود الثلاثة الاخيرة. ما حدث هو العكس. تكسرت رماح الإمبريالية وأذيالها على الصخرة السورية، وأدرك العالم أن هناك شيئاً تغير. لم تعد حروب الولايات المتحدة بذات السهولة، ولم يعد النصر حليفها الدائم، فسارع من كان يراقب ويتحين الفرصة إلى الدخول إلى المواجهة مع سورية في معركة الخلود الرأسمالي، معركة تتويج الولايات المتحدة ورأسماليتها ودولارها إلهاً للكون، يرث الأرض ومن عليها، ويحسم جولته التاريخية في العدوان على البشرية مذ ولدت الرأسمالية. هذه المواجهة أعادت بعث روسيا من جديد، وصبغت الصين بلونٍ بعدما توارت عقوداً خلف شيوعيتها الشفافة لا الحمراء. من الميدان السوري أطل النظام العالمي الجديد برأسيه الروسي والصيني، فكان الفيتو المزدوج باكورة بروز التعددية القطبية، ولكن تتابع الأحداث في الميدان السوري عزز من الحضور الروسي، وذلك بالدخول إلى جنب الدولة السورية في المعركة، وفرض وقائع جديدة على الساحة الدولية، أعادت عقارب الساعة إلى الوراء بما يذكر بجو الحرب الباردة أيام الاتحاد السوفييتي. وعزز ذلك أيضاً من الحضور الصيني وأعطى لكلا القطبين نوعاً



من المصداقية التي تفتقدها الولايات المتحدة، والتي تتجلى دائماً بتخليها عن حلفائها. ومع هذه الظواهر المتنامية من قبل كل من روسيا والصين إلا أنها بقيت بطيئة السير، ولكن منتظمة، وباتجاه تصاعدي، ما فتح أبواباً لقوى إقليمية على مختلف الساحات الدولية كي تنهض بدورٍ مهمٍ في مناهضة أحادية القطب.

إن بذور التراجع الأمريكي والإمبريالي عموماً نشأت عبر انفصال الرأسمالية عن طبيعتها الإنتاجية وبروز عصر الرأسمال المالي ما خلق ظروفاً ومناخات لكثير من دول العالم للتحول إلى اقتصادات منتجة مستفيدة من الاستثمار الرأسمالي الغربي، فغدا العالم يسير في مسارين متفقين ومتضادين في نفس الوقت، فبالقدر الذي غذى رأس المال الإنتاج والتصنيع في عالم الجنوب، ولو ضمن تقسيم دولي للعمل يترك القمم العليا للتكنولوجيا في يد الغرب، ازداد المركز الإمبريالي ثراءً، وبالقدر الذي خلق أزمات اقتصادية ومعاشية وبطالة في مركزه، حتى ونخبه تزداد ثراءً، تراجعت مع الوقت القدرة التأثيرية للغرب في مسار السياسة العالمية مقارنةً عما كانت عليه عشية انهيار الاتحاد السوفييتي.

لقد أتاح العقد الأخير، مع توسع نطاق التمدد الصيني الروسي، المجال لدولٍ مثل إيران وجنوب إفريقيا والهند والبرازيل لممارسة دور مهم في الساحة الدولية. وهو دورٌ، بالمناسبة، لا يشبه ما كان سائداً في حقبة الحرب الباردة من التبعية لقطب أو معسكر بعينه، ولكنه نمطٌ من التعددية القطبية العالمية مع تعددية قطبية إقليمية الطابع أخذت مكاناً ودوراً مهماً على مستوى أقاليم العالم، وأهم أمثلتها وأوضحها الدور الإيراني كقطبٍ إقليميٍ ضمن المجال الحيوي الذي تقع فيه إيران.

بالرغم من قولنا إن ولادة نظام متعدد الأقطاب قد تمت على الأرض العربية في أرض الشام، إلا أن حصة العرب غير موجودة في ظل هذا النظام، فلا يوجد معبر حقيقي وواقعي يعبر عن العرب في ظل التحولات الدولية الجارية، مع العلم أن تعدد القطبية الدولية يخدم قضايانا العربية، إلا أن الحالة العربية تراوح مكانها على مستوى بعض الدول العربية. وعلى مستوىً آخر، تتدهور الحالة



طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــ 82 ـــدد

01 تموز 2022

العربية بشكل دراماتيكي، فالولايات المتحدة استطاعت أن تحتاط للتحولات عن طريق ربط الملكيات العربية بشكلٍ أكبر مع كيان العدو الصهـ.ـيوني، عندما أخرجت إلى الوجود اتفاقات «السلام الإبراهيمي»، وهذا عزز من حالة التبعية وسار بشكل متسارع نحو الاستقطاب في مواجهة إيران بالشراكة مع الكيان الصهـ.ـيوني، ومن دون مبرر منطقي أو واقعي.

لا نشك في أن مصلحة الأمة العربية مع نظام متعدد الأقطاب لكن المشكلة أن ندخل إليه ونحن متشرذمون أو منهكون بفعل الحروب المفتعلة، لأن الخطورة تتجلى في الثمن الذي يجب أن ندفعه إذا لم نكن قطباً إقليمياً أو على الأقل ضمن تحالف إقليمي يسير في الاتجاه العام مع مصالح أمتنا العربية.

إن الشكل المقبل لخارطة الصراعات والتوازنات الدولية مع دخول العالم إلى نظام دولي جديد، سيتسم بالاضطراب والقلاقل. فالقواعد التي كانت تنظم العلاقات الدولية كانت مبنية على أساس القطب الواحد، والنظام الجديد بضيوفه الجدد يريد أن يغير من هذه القواعد ويضع بديلاً لها ليعبر عن التوازنات الجديدة والقوى الصاعدة، وهذا سيتوقف عليه مدى تعاطي تلك القوى في التفاهم أو التناحر. فلن يكون غريباً أن تنفجر صراعات خامدة من عقود طويلة، أو انفجار صراعات لم تكن موجودة من قبل، أو أن يتم إخماد صراعات كانت قائمة، فهذا سيعتمد على مناطق النفوذ وعلى مصالح الأطراف المتصارعة ومساوماتها، فلا شك أن حالةً من الاحتقان لدى كثير من شعوب العالم ستجد طريقها إلى التنفيس أو الانفجار مع تراخي القبضة الأمريكية. لذلك إن أكثر المخاطر توقعاً هي أن تكون بلادنا العربية ميداناً لموجة عنف جديدة بين الأقطاب الدولية المتصارعة، حيث إن الموجة الأولى استهدفت الدول العربية التي لا تدور في الفلك الأمريكي، وكانت ضمن سياق الترتيب الأمريكي لأقاليم

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 82
01 تموز 2022



العالم، ومنها الوطن العربي، ضمن منظور هذا القرن قرن أمريكي خالص، فالمخاطر المستجدة هي انفجار العنف المذهبي والطائفي ضمن منظومة الدول العميلة لأمريكا، وعلى رأسها الملكيات العربية، وليس من باب إسقاط تلك الأنظمة، والتي لا نأسف على زوالها، ولكن من باب تمزيق الممزق وتربع الكيان الصهـ.ـيوني على عرش منطقتنا العربية.

لا نعلم على وجه التحديد شكل النظام المتعدد الجديد الذي يبرز، ففي حقبة الحرب الباردة كانت الأيديولوجيا هي المحرك خلف العلاقات والصراعات بين القطبين، أما في عالم اليوم فلا مكان للأيديولوجيا ضمن أجندة الأقطاب الدولية، فالسمة المصلحية الاقتصادية هي الغالبة على السطح منذ عقد وأكثر، وهي التي تتجلى في حرب أوكرانيا، فعلى الرغم من حالة الحرب الفعلية بين روسيا والناتو في أوكرانيا، إلا أن المصالح المتبادلة لم تنقطع، وإن بدأت تتراجع، إلا أن هذا يشير إلى نموذجٍ مختلفٍ في علاقات الصراع الدولية، والتي قد ينشأ عنها أنصاف أعداء وأنصاف أصدقاء وأنصاف حلفاء، وقد يخدم هذا النمط مصالح العالم الثالث عموماً والعربي خصوصاً، لجهة أنه لن تكون هناك مراكز استقطابية استحواذية ناجزة، إما معنا أو علينا، لكن الأخطر أن تتجه منظومة التوازنات إلى التفاهم والتقسيم لمناطق النفوذ، والتي لا يتم الاتفاق عليها تنفجر على شكل بؤرة صراع دولي عبثي غالباً إلى حين التوصل إلى حلول بين الأقطاب المتناحرة.

لهذا نقول نحتاج كعرب إلى فترة استرخاء قطبي تجاهنا وتجاه قضايانا حتى يمكن أن نسرق لحظات نعيد ترتيب البيت العربي فيها، وهنا الرهان قد يكون في المرحلة المقبلة على مصر والجزائر، وربما سورية والعراق، إلا إذا كانت الصيغة سورية مع العراق، وهنا سيختلف الميزان وسيختلف التقدير، ولكن لا يمنع أن نستفيد من عدائنا التاريخي للكيان بالتعاون مع إيران بما يخدم مصالح الطرفين.

باختصار، نحن بحاجة إلى مشروعٍ عربي، لكي ندخل نداً في حلبة التعددية

القطبية، ولكي لا نبقى غنائم ودوائر نفوذ وحلبة صراع. ومن البديهي أن مثل هذا المشروع يحتاج إلى قوة شعبية عربية منظمة ضمن أفق مشروعٍ قومي، سواء دفعت التطورات الجديدة بعض الأنظمة العربية لإدراك مصلحتها في أن تكون قطباً مستقلاً بعيداً عما يسمى «ناتو شرق أوسطي»، أم لم تدركها.

ما بين الهجرة والتهميش: طاقات شبابية مهدورة في عصر ما بعد السلام

كريمة الروبي



طوبى لمن طعموا خبزه في الزمان الحسن
وأداروا له الظهر يوم المِحن
«أمل دنقل»

سياسة الانفتاح الاقتصادي وما نتج عنها من تغيرات طرأت على المجتمع المصري أدت إلى تسليع كل شيء وتحويله من مجتمع منتج إلى مجتمع استهلاكي، بات كل شيء قابلاً للبيع والشراء، وأصبحت (الفهلوة) هي شعار المرحلة، و(اللي مش هيغتني في عهدي مش هيغتني بعد كدة أبداً)، التي نطق بها سابق عصره وأوانه في العمالة والتفريط، والتي فتحت الباب للسرقة والتهليب بعد أن هان عليه الوطن وتنازل عن الأرض والشرف حين زار القدس في 1977 ثم وقع كامب ديفيد في 1978، والتي منحَت للعدو بعد هزيمته ما لم يكن يحلم به حتى في عز انتصاره، أصبحت الكرامة والشرف مجرد شعارات لا قيمة لها، أما المواطن الذي كانت تتكفل الدولة بتعليمه وعلاجه ومسكنه وتوظيفه، وهي حقوق أصيلة كان يتمتع بها، فقد بات غريباً بعد أن تخلت الدولة عن كل

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 82
01 تموز 2022



ذلك وأصبحت كل خدمة تقدم له مدفوعة الأجر حيث تحول الوطن إلى مؤسسة تجارية هادفة للربح.

إن الأنظمة التي ترى أن أية خدمة تقدمها لمواطنيها يجب أن تكون مدفوعة الأجر ترمي بذور البراغماتية وتغليب المصالح الذاتية في نفوسهم ليتحول الوطن في نظرهم إلى مؤسسة خدمية ما إن تعجز عن تقديم خدماتها لهم سيتركونها ليبحثوا عن وطنٍ بديل، وهذا لا شك ناتجٌ من تحول النظام الاقتصادي من نظام اشتراكي يشعر المواطن فيه أن الوطن هو ملك للجميع، وفي خدمة الجميع من دون استثناء، إلى نظام رأسمالي تحولت فيه كل قيمة إلى (سلعة)، ويا ليته كان نظاماً رأسمالياً مستقلاً، بل إنه نظامٌ تابعٌ مرهونٌ بإرضاء المؤسسات الدولية التي تضغط من أجل المزيد من الإجراءات الاقتصادية القاسية، والتي تدفع للبعض إلى الهجرة، وفي بعض الأحيان يصل إلى الانتحار بعد انسداد الأفق أمامه في حياة كريمة ينعم فيها بالأمان ويشعر بقيمته كإنسان ويخطط فيها لمستقبله ومستقبل أبنائه.

إن أهم ما يميز هذه الأمة أنها أمة شابة حيث أن حوالي ثلث سكانها من الشباب ولكنها أمة مبتلاة في أنظمتها التابعة التي ترضخ للغرب على حساب مواطنيها فتدفع بهم للهجرة وإهدار طاقاتهم الشبابية التي تعتبر الركيزة الأساسية في عمليات التنمية، حيث يفكر 42% منهم بجدية في الهجرة خارج البلاد.

وفي مصر تحديداً تشير الدراسات إلى أن الشباب من سن (15-29) يمثلون 26% من عدد السكان أي أن أكثر من ربع الشعب المصري من فئة الشباب الأقل من 29 عاماً. وعلى الرغم من ذلك، يتم إهدار تلك الطاقة الشبابية بما تحمله من طاقات إبداعية، ولكنها نشأت في بيئة طاردة للطاقات. ففي القطاع الطبي مثلاً يعمل 62% من الأطباء المصريين خارج مصر، فهم إما استقالوا من عملهم أو حصلوا على إجازات من دون راتب بدافع السفر.

لا شك في أن الدافع الرئيسي للهجرة هي العوامل الاقتصادية، خصوصاً في ظل انتشار الفساد والمحسوبية والتهميش والشعور بالظلم، ناهيك عن تحول نظام

الدولـة إلـى نظـام رأسمالي، ومـا نتـج عـن هـذا النمـط الاسـتهلاكي مـن أفكـار ماديـة عبـر عنهـا الفنـان محمـد صبحـي فـي مسـرحية «سـكة السـلامة 2000»، حيـن كان يـردد علـى لسـان قـواد مقولـة (أبّجنـي تجدنـي)، أي ادفـع لـي تجدنـي فـي خدمتـك، حتـى أصبـح هـذا المنطـق ينطبـق علـى كل شـيء حتـى الانتمـاء للوطـن.

لسـنا هنـا بصـدد اتهـام مـن يبحثـون عـن لقمـة عيشـهم خـارج أرض الوطـن، كمـا أننـا لا نبـرر لمـن تركـوه فـي محنتـه وراحـوا ينفعـون أعـداءه بعلمهـم الـذي تعلمـوه فـي بلدهـم، فـلا يمكـن قبـول أي مبـرر للاعـب الاسـكواش محمـد الشـوربجي الـذي قـرر بكامـل إرادتـه اللعـب تحـت علـم إنجلتـرا بـدلاً مـن علـم مصـر، والـذي حصـد تحتـه العديـد مـن البطـولات، ونـال تكريمـاً رسـمياً مـن الدولـة فيهـا، مبـرراً ذلـك بأنـه يريـد أن يـرد الجميـل لإنجلتـرا، وهـي البلـد التـي احتلـت مصـر لمـا يزيـد عـن سـبعين سـنة، ومـا زالـت تتآمـر عليهـا.. فـأي جميـل يريـد أن يـرد؟! وأنـه سـيلقى تقديـراً أفضـل، لـم يلقـه فـي مصـر، التـي تعـرض فيهـا للتهميـش!! أي تهميـش يقصـد؟ هـل اختبـر تهميـش الطبقـة الفقيـرة ليعـرف المعنـى الحقيقـي للقهـر وقلـة الحيلـة، وهـو ابـن الطبقـة التـي يلعـب ابنهـا لعبـة أرسـتقراطية لا يوجـد لهـا ملاعـب سـوى فـي نـوادي النخبـة؟

إننـا إن وجدنـا لـه المبـرر فإننـا سـنجد أنفسـنا نقبـل بمـن يخـون وطنـه بسـبب تهميـش أو ظلـم تعـرض لـه، أو اسـتجابةً لتطلعـات كانـت ظـروف بلـده سـبباً فـي عـدم تحقيقهـا، فـكل مـن خانـوا يومـاً وباعـوا أوطانهـم كان لديهـم دافـعٌ، ولكنـه يظـل دافعـاً وليـس مبـرراً، فالخيانـة تظـل خيانـة لا مبـرر لهـا أبـداً. فمـاذا لـو أن مجنـداً فقيـراً مهمشـاً مظلومـاً، توجـد فـي بلـده كل أنـواع الظلـم، يقـف علـى الحـدود، قـد بـاع أسـراراً مهمـة عـن وطنـه للعـدو؟ هـل سـنرى وقتهـا أن التهميـش الـذي يتعـرض لـه، رغـم حراسـته لحـدود الوطـن، هـو مبـرر للخيانـة؟ ومـع ذلـك فإنـه لا يخـون، فهـو وأمثالـه ملـح الأرض، يضحـي بـلا مقابـل، يضحـي بدمـه فـداءً لوطـنٍ لـم يجـد فيـه وظيفـة مناسـبة أو تعليمـاً جيـداً، وحيـن يمـرض لا يجـد رعايـة صحيـة جيـدة، فـي حيـن أنـه يـرى مـن ينعمـون فـي الوطـن ذاتـه بالتعليـم والصحـة والمـال والسـكن والعمـل مـن دون أيـة تضحيـة، ومـع ذلـك يتخلـون عـن وطنهـم فـي أول فرصـة ويبحثـون عـن وطـن بديـل كان يومـاً مـا – ومـا زال- عـدواً لوطنهـم.



لا شك في أن من أبناء الوطن من يضطر للاغتراب بحثاً عن عمل مناسب يؤمن له حياة كريمة، ولكن يظل الوطن في قلبه ووجدانه، ويتمنى لو تتاح له الفرصة التضحية من أجله. أما من اختار ألا ينتمي لوطنه فلا مبرر له أو عذر مهما كان السبب، فما بالك وإن كانت كلها مبررات نابعة من أنانية مفرطة لمن اعتادوا على الأخذ بلا عطاء، في حين أن هناك من هو مستعد للعطاء والتضحية، وحتى بالحياة، بلا أي مقابل.

الخطاب القومي العربي للرئيس د. بشار الأسد بين مرجعية الدولة وعقيدة حزب البعث

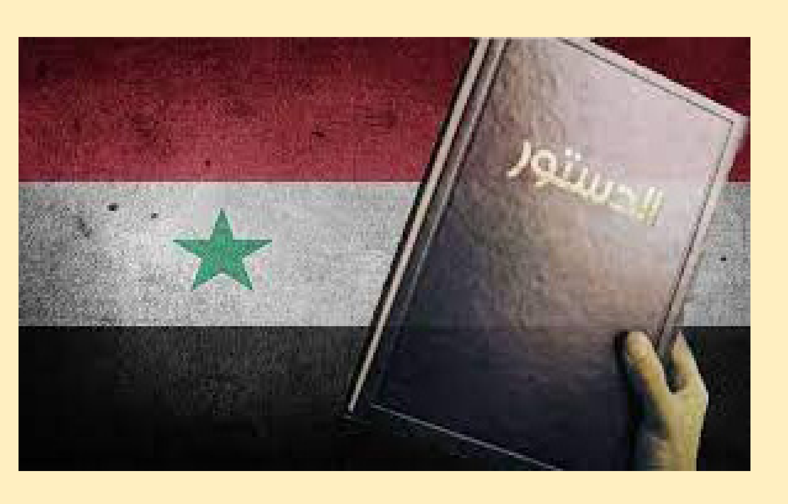
إبراهيم حرشاوي



مع اجتياح المعسكر الإمبريالي-الغربي للساحة العربية الممانعة عقب انتهاء الحرب الباردة، صمدت الدولة السورية كآخر دولة عربية أمام هذه الهجمة التي استهدفت بشكل ممنهج الأنظمة العربية ذات الخلفية القومية والتحررية، ما يجعل أحد أهم مسببات العدوان وخلفيات الصمود، في آن معاً، هو العقيدة الأيديولوجية للدولة السورية، أي الهوية السياسية التي يلتزم بها الخطاب الرسمي السوري ويتبناه كمرجعية في تحديد توجهاته واختياراته السياسية.

وقبل التطرق لموقع حزب البعث العربي الاشتراكي بصفته القوة السياسية الأكثر تأثيراً في البلاد بحكم دوره التاريخي المعروف في تأطير المشهد القومي العربي، سواء داخل سورية أوخارجها، منذ سبعة عقود، وبصفته حزباً مقاوماً

جعل من رؤيته للواقع عاملاً حاسماً في صمود الدولة في العقدين الماضيين، أو بالأحرى بعهد الرئيس الحالي د. بشار الأسد، فلا بد ولو باختصار من تبيين مضمون المرجعية التي يمثلها الدستور السوري في إنتاج خطاب قومي رسمي للدولة. ومع إقرار وجود تأثير متبادل وتشابك عضوي بين الحزب والدولة، فلا بد من النظر إلى الجهتين كحالات مستقلّة وقائمة بحد ذاتها. فالدولة تتميّز في نهاية المطاف بالتزامات داخلية وخارجية وصلاحيات لا تتواجد لدى الحزب، ناهيك عن اختلاف طبيعة مجالي عمل الجهتين من حيث الشكل والمضمون. فدور حزب البعث يختصر في جوهره مهمة إرساء ثقافة سياسية وشعبية تتصف بالمفهوم الواسع، في أغلب الجوانب، بالتوجه الوطني والقومي العربي العقائدي النابع من التجربة الفكرية والنضالية للحزب، ويكمن دوره في إيجاد صيغة نضالية يوفق فيها بين مكتسبات وإخفاقات الماضي وتحديات المستقبل.



أما بالنسبة للمرجعيات المحورية للدول، فتعتبر الوثيقة الدستورية، كما هو معروف، المرجعية القانونية الأعلى التي تترجم الخلفية الفلسفية والنظرة للإنسان والمجتمع من قبل القوى الحاكمة لتصبح مسودة تأسيسية ومهيكلة لكيان الدولة. ولهذا السبب بالذات تكمن أهمية القيام بإطلالة على المبادئ الوطنية والقومية التي تم تبنيها دستورياً، والقيمة السياسية الممنوحة لهذه المبادئ على هذا المستوى. ومن الوهلة الأولى ينتاب القارئ شعوراً بأن الدستور السوري يمثل أسمى تعبير شرعي عن الإرادة القومية للشعب والأمة بموجب تعريفه للهوية السورية بمستهله، إذ يعبر النص الدستوري عن الهوية الحضارية السورية ورسالتها القومية بطريقة مختصرة ودقيقة كالتالي: «تعتز الجمهورية العربية السورية بانتمائها العربي، وبكون شعبها جزءاً لايتجزأ من الأمة العربية مجسدة هذا الانتماء في مشروعها



الوطني والقومي، وفي العمل على دعم التعاون العربي بهدف تعزيز التكامل وتحقيق وحدة الأمة العربية».

ويتبين للقارئ أن العمود الفقري للنص الدستوري قومي عربي بامتياز بناء على ملاحظتين أساسيتين أولهما تواجد منطلق «تحقيق وحدة الأمة العربية» في مقدمة الديباجة الدستورية، حيث تعتبر الديباجة الدستورية بوصلة المضمون القانوني للدساتير بشكل عام، بحكم تمثيلها المنطلق الفلسفي لأي نظام سياسي دستوري، وثانيهما تكمن في دور الديباجة في إخضاع المواد والنصوص التي يحتويها الدستور للمبادئ التي تتناولها الديباجة وأهداف النظام السياسي الآنية والمستقبلية.

وبناء على المبدأ الوحدوي العربي المعبر عنه بالديباجة تستدعي المقاربة الأيديولوجية للدستور السوري النظر إلى بقية مواد الفصول بشكل منسجم أو متكامل مع مفهوم الوحدة العربية. وفي هذا الخصوص، يكتنز ما جاء في الفصل الأول، تحت عنوان «المبادئ السياسية»، فقراتٍ بالغة الأهمية في التأكيد على الهوية القومية العربية للمنظومة السياسية السورية.

وتشير المادة الأولى من هذا الفصل، في هذا الصدد، إلى انتماء سورية إلى الوطن العربي وإلى الأمّة العربية تيمناً بما ورد في الديباجة، في حين تحتوي المادة الرابعة على الهوية اللغوية للبلاد بعبارة « اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد». وتزداد مركزية الهوية القومية العربية وضوحاً في التزام رئيس الجمهورية بمعركة الوحدة العربية دستورياً ضمن المادة السابعة من الفصل الأول التي تصيغ القسم الدستوري كالتالي: «أقسم بالله العظيم أن أحترم دستور البلاد وقوانينها ونظامها الجمهوري، وأن أرعى مصالح الشعب وحرياته، وأحافظ على سيادة الوطن واستقلاله وحريته والدفاع عن سلامة أرضه، وأن أعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية ووحدة الأمة العربية».

تتجلى في محتوى القسم، بشكلٍ واضح ،المسؤوليات والأولويات التي تقف عليها مهمة رئيس الجمهورية، وأنّ مجيء مهمة تحقيق وحدة الأمة العربية في

آخر المهمات التي ينبغى على الرئيس الالتزام بها، في فقرة القسم، ينم عن دلالة استراتيجية لمفهوم الوحدة بصفتها ذروة المشروع السياسي للدولة السورية. ومما لا شك فيه أن هذا الإطار الدستوري يدفع بشكلٍ تلقائيٍ نحو إماطة اللثام عن موقع حزب البعث كجهاز سياسي متكامل الأركان في بناء فلسفة الدولة وبلورة خطابها السياسي. وانطلاقاً من الترابط والتشابه بين المنطلقات السياسية للدستور السوري وأيديولوجية حزب البعث يتضح أنه، وبالرغم من الإصلاحات السياسية للدولة السورية في العقدين الأخيرين، وعلى رأسها الإصلاح الدستوري سنة 2012 الذي تخلى عن المادة الثامنة للدستور التي تنص على قيادة البعث للمجتمع والدولة، من خلال الجبهة الوطنية التقدمية المتكوّنة من مجموعة أحزاب، وتخلي نفس الدستور عن شعار البعث «الوحدة والحرية والاشتراكية» في صياغة بعض المواد الدستورية، إلا أن البعث ظل في ريادة المجتمع والدولة بعد سنة 2012.

فالانفتاح على الأحزاب الأخرى، لم يتحول إلى تراجع في نفوذ فكر البعث وخطابه، وإنّما ظلت رسالة الحزب مهيمنة في المؤسسات السيادية. ومن باب التدقيق في هذه المسألة، يجب الوقوف عند رغبة الأمين العام للحزب د. بشار الأسد، قبل اندلاع العدوان الخارجي سنة 2011، في تطوير أداء الحزب لاستمراره كحزب طليعي بالمجتمع والدولة، إذ وضح الأمين العام رؤيته في هذا الخصوص كالتالي: «إنّ البعث، كما يفترض أن يكون واضحاً في ذهن كلّ واحد منا، هو قضيةٌ قبل أن يكون تنظيماً سياسياً، وهو رسالةٌ حضاريةٌ قبل أن يكون حزباً في السلطة، ولا بدّ له كي يدافع عن قضيته ويضطلع بأداء رسالته، من أن يطوّر تعاليمه ومناهجه وأن يتجاوز ما يظهر من قصور في أدائه، وأن يعمد إلى الانفتاح على القوى الوطنية في مجتمعه، وأن يعيد الاعتبار لحركته الريادية في أوساط الجماهير، إنّ أفكار الحزب وتعاليمه، كما نرى ونعتقد، لا تزال راهنة ومعاصرة تلبي مصالح الشعب والأمّة».

ويلزم في محاولة فهم هذا السياق الإصلاحي وتوجهاته داخل حزب البعث العودة إلى المؤتمر التاسع للحزب سنة 2000. فعلى غرار الرئيس الراحل



حافظ الأسد سيضع الرئيس د. بشار الأسد بصمته على مسيرة الحزب ابتداءً من ذلك التاريخ، كون مؤتمر سنة 2000 كان متصلاً اتصالاً مباشراً بفترة الرئيس الراحل، حيث أن وثائق المؤتمر أعدّت خلال فترة حكمه، كما أنّ قرارات المؤتمر وتوصياته كانت مطعمّة بالفترة السابقة.

وقد عبّر الرئيس بشار الأسد، في كلمته أثناء الجلسة الختامية للجنة المركزية المنبثقة عن المؤتمر التاسع، عن ارتباطه بالبعث بصفته «ابن البعث» نتيجةً لنشأته في أسرة مكافحة. كما أكدّ على تمسكه بنهج والده، في حين تطرق إلى قضية الوحدة العربية عن طريق المدخل الاقتصادي والسياسي معلناً عن ضرورة البحث عن تكتلات اقتصادية أو سياسية ضمن بوتقة الدول العربية التي تتمتع بروابط تاريخية، بما أنها في أمس الحاجة إلى مشروع وحدوي، ولو على مراحل متعاقبة.

وعلى عكس ما قد يتصوره البعض، لم ينخرط الرئيس د. بشار الأسد في موجة اللبرلة التي اجتاحت الساحة الفكرية العربية، وخصوصاً في المجال الحزبي الذي عرف تحولاً ملحوظاً نحو لبرلة المفاهيم والرؤى السياسية لدى التيارات المنبثقة عن مرحلة التحرر من الاستعمار ومناهضة الأنظمة الرجعية. فقد رفض الطروحات الداخلية التي تزعم أن الوقت الحالي يمثل حقبة ما بعد الأيديولوجيات بمعنى أنها مرحلة انتصار المشروع الليبرالي ومبادئ السوق الحر بعدما أصبح جوهر العمل السياسي يدور في فلك المصالح الاقتصادية والتقنيات الحديثة، بحسب مروجي هذا النوع من الطروحات. كما رفض أيضاً الآراء التي تقول إن شعارات الحزب لا مستقبل لها، بتأكيده على «أن عقيدة الحزب وشعارته اليوم ما تزال تتماشى مع العصر وتنسجم معه». وخلال هذا المؤتمر تم انتخاب الرئيس د. بشار الأسد أميناً عاماً للجنة المركزية للحزب وقائداً لمسيرة الحزب والشعب.

ويمكن القول إن المؤتمر القطري العاشر الذي عقد تحت عنوان « رؤية متجددة... فكر يتسع للجميع»، سنة 2005، هو المؤتمر الأقرب للواجهة الأيديولوجية

المرتبطة بفترة الرئيس د. بشار الأسد، مقارنة بالمؤتمر التاسع. فقد مرّت سورية والوطن العربي ودول العالم الثالث بمرحلة أقل ما يمكن القول عنها إنها مرحلة مفصلية، وذلك بعد اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية وأحداث 11 أيلول وغزو أفغانستان والعراق وتداعيات اغتيال رفيق الحريري. فهي المرحلة التي جرى فيها التخطيط لإلحاق المنطقة بمشاريع «الشرق الأوسط الكبير والجديد»، كما أوضح الكاتب البعثي ومدير دار البعث د. عبد اللطيف عمران (انظر «د. عبد اللطيف عمران يلقي الضوء على الفكر الجديد لحزب البعث: البعث بين النظرية والممارسة»).

وعلى هامش هذه التطّورات بداية هذا القرن، أكّد الرئيس د. بشار الأسد أن استمرار الحزب مضمون بمقدار تلازمه مع الواقع، وتماشيه مع تطوراته مفسراً بذلك قدرة البعث على التكيّف مع التحديّات الخارجية وتجاوزها. ويكشف هذا الأمر عن قوة الحزب في الجمع بين تشبثه بمرجعيته العليا، وهو دستور الحزب الصادر سنة 1947 ، واتصاله المتين بروح التجديد من خلال ما ورد في المحاور الفكرية والمنهجية بوثائق فكرية للحزب كـ«بعض المنطلقات النظريّة لحزب البعث العربي الاشتراكي «الصادرة سنة 1963، والتي حثت على ضرورة نقد بعض المفاهيم.

زد على ذلك الحركة التصحيحية سنة 1970 ودورها في إنشاء كتلة حزبية واسعة تحت مظلة «الجبهة الوطنية التقدمية»، وحضور أسلوب المراجعة النقدية باستمرار في مقررات وتوصيات مؤتمرات الحزب القومية والقطرية. وغني عن البيان أيضاً في هذا السياق أن ميول الرئيس د. الأسد الإصلاحية، بمفهومها التطويري الديناميكي لا الليبرالي، رافق خطابه منذ توليه منصب الرئاسة، مع إصراره في خطاب القسم سنة 2000 على «أن الفكر المتجدد والمبدع لا يتوقف عند حد معين، ولا يحصر نفسه في قالب واحد جامد». وانطلاقاً من هذه الصفحة الجديدة شرع البعث منذ سنة 2004 في مناقشة منطلقات الحزب الفكرية من دون أن تفقد الأهداف الكبرى وضروراتها الوطنية والقومية أهميتها داخل أجهزة الحزب.



وفيما يخص القضية الفلسطينية، أقرّ التقرير المقدم إلى المؤتمر العاشر للحزب أن وضعية التفكك والعجز، بالإضافة إلى غياب التضامن العربي، حولت صيغة «الأرض مقابل السلام» التي انخرطت فيها الدولة السورية في تسعينيات القرن الماضي إلى صيغة «السلام مقابل السلام». ويرى هذا التقرير أن سورية استطاعت ضمن هذا القرار العربي الرسمي أن تحقق نقطتين لصالحها إزاء المعادلة السياسية والدبلوماسية مع الكيان الصهـيوني، الأولى هي: الاعتراف بأن الانسحاب من الجولان يعني انسحاب الاحتلال من الجولان السوري إلى خط 4 من حزيران/يونيو 1967. والثانية: أن المسؤولية على توقف ما يسمى بـ»عملية السلام» تقع على عاتق الكيان الصهـيوني بحجة أن مذكرات كبار المسؤولين والمحللين الأمريكيين تؤكد ذلك، ومن بينها مذكرات الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون.

ومع موجات التطبيعِ الإبراهيمي التي شهدتها الساحة الرسمية العربية تظهر رؤية الحزب واضحةً في وضع المشروع الإبراهيمي والمشروع القومي العربي على طرفي النقيض، إذ تظهر ردود الحزب على هذا المشروع في أدبياته، ومن بينها مقالٌ آخر للدكتورعبد اللطيف عمران (انظر مقال «الدبلوماسية الروحية في مواجهة المشروع القومي») يوضح فيه أن الفكر القومي والعروبي مشروع ضروري ووجودي لا بديل عنه أمام الخطر الداهم الذي تحمله الدبلوماسية الروحية (المشروع الإبراهيمي) بين طياتها.

أما الأخطار التي يواجهها حزب البعث، فتكمن في المشروع العدائي الذي تقاومه سورية والأمّة العربية، والذي كان ولا يزال يتجسد في العثمانية القديمة الجديدة والغرب بجناحيه الأمريكي والصهـيوني. وقد تضرّر الحزب - حسب ما جاء في مقال آخر للدكتورعمران بعنوان «هل تضرّر الحزب من الحرب؟ «- على ثلاثة مستويات: أولها، زج شباب الأمة على طريق البترودولار في التطرف الديني خدمة لأعداء الأمة، وثانيها، التضليل الإعلامي والغزو الثقافي، وثالثها، توجيه البندقية من طرف قوى رجعية باتجاه محور مقاومة المحور الصهـيوني. ويوضح الكاتب نفسه في مناسبة أخرى (انظر «الحياة الحزبية

المعاصرة: البعث والتصحيح») أن استهداف الحزب فكراً ومؤسساتٍ وكوادرَ هو في سياق استهداف قضايا الشعب والوطن. ومع ذلك، يبقى الرئيس د. الأسد في موقعٍ مركزيٍ داخل المشهد البعثي بمساهماته الخطابية والتحليلية في تأصيل الروح الوطنية والعروبية ومركزية القضية الفلسطينية في سياق التناقض الوجودي بين المشروعين القومي العربي والمشروع الصهـ-يوني.

يوضح كتاب «القائد القومي بشار الأسد: قراءة تحليلية- مفاهيمية في كلماته الجماهيرية والرسمية خطاب سنوات الحرب (الأعوام 2019-2011م)»، للدكتور إبراهيم علوش، أبعاداً مؤسِسة للخطاب الفكري والسياسي للرئيس د. الأسد. ومن أهم الأبعاد الأيديولوجية التي عالجها الكاتب ما تضمنه الفصل الثامن المعنون «القومية العربية والهوية الوطنية السورية»، حيث سلط الضوء على مفاهيم مفتاحية بالمعجم الرسمي السوري والبعثي. ومن بين هذه المفاهيم المفتاحية مفهوم العروبة الذي أخذ دلالةً حضاريةً تميّزه عن العروبة الرسمية كانعكاس لسياسة الجامعة العربية والأنظمة التابعة. فالعروبة عند الرئيس د. الأسد تراث وتاريخ وأن الهوية الوطنية السورية متكاملة مع الهوية القومية العربية ولا تناقض بينهما (10/01/2012).

وفي ذات الكتاب أبرز د.علوش حرص الرئيس الأسد في مناسبات مختلفة على الحفاظ على مادة توضح قضية العروبة وعدم الاستغناء عنها بأي شكل من الأشكال، مما يثبت انخراط الرئيس السوري في معركة الذود عن عروبة هوية الدولة طيلة فترة العدوان الخارجي . وبالعودة إلى مصطلح العروبة، استعرض الرئيس د. الأسد، في عدة لقاءات تواصلية، نظرة على التعريف غير العرقي للعروبة، وبأنها باختصار حالة حضارية. وتطابقاً مع هذا الفهم الحضاري للعروبة نجد استرسالاً توضيحياً لهذا المفهوم، في كتاب د. علوش، في مقاربة تاريخية تدلّ على وجود تصوّر حضاري للهوية العربية منذ القدم وتأصيلها بالتراث العربي عند أساطين الفكر والأدب أمثال الجاحظ والبحتري.



ونجد أيضاً هذا المنحى لمفهوم العروبة مكرراً بشكل جلي عند الكاتب د. عبد اللطيف عمران وإلحاحه على الفصل بين العروبة كنسق فكري والعروبية كنهج سياسي، في فقرة من مادة تحمل عنوان «الهويّة الجامعة: العروبة الحضارية والعروبة السياسية»، حيث كتب « يجب علينا كقوميين عرب التركيز على الهوية الجامعة والتفريق بين «العروبة» كنسق فكري ثقافي، وبين «العروبية» كنهج سياسي، فلا بد من تحصين العروبة الحضارية كهوية جامعة وتنقيتها من العروبية السياسية التي تشوبها الانتماءات الضيّقة وتهددها بسهولة «الهويات القاتلة» بسبب ضعف منعتها قياساً إلى العروبة الحضارية التي استطاعت عبر تاريخها أن تضم برحابة صدرها المكوّنات الحضارية للشعوب الأخرى على مختلف انتماءاتها المناطقية والطائفية والمذهبية والعرقية والإثنية." ويقصد الكاتب بالعروبة السياسية السياسات الاستسلامية للأنظمة العربية التي شوّهت الهوية السياسية العربية وجعلتها خالية من أي معنى حضاري، في حين تروج ذات الأنظمة للطائفية والتعايش مع المحتل باسم الحداثة ونبذ التطرف والعنف.

لم تنل سنوات العدوان على سورية من أمل تحقيق الوحدة العربية في خطابات الرئيس د. الأسد. ففي لقاء مع صحيفة البعث، سنة 2013، صرّح أن المشروع القومي العربي مستهدفٌ دائماً، وأن تحقيق الوحدة العربية ينبغي أن يكون عبر ربط المصالح بين الأعراق والشرائع والمذاهب المختلفة لأن ذلك سيؤدي إلى ربط المجموعات البشرية في إطار قومية واحدة». ويضيف الرئيس د. بشار الأسد في نفس المقابلة، مراجعاً محصلة التجربة الوحدوية العربية بمنتصف القرن الماضي: «في الخمسينيات كانت الوحدة العربية تعني أن يكون الوطن العربي كله دولة واحدة بحكومة واحدة.. عبر التجربة، ومع تكريس القطرية في الدول العربية، يبدو أن هذه الرؤية للوحدة العربية غير قابلة للتحقق في المدى المنظور».

وفي سنة 2021، قدم الرئيس د. بشار الأسد خلال استقباله وفداً من المؤتمر القومي-الإسلامي رؤيةً لإحياء المشروع القومي العربي ارتكزت على ركزتين أساسيتين :أولاهما «أن التحدي الأكبر الذي يواجه المثقفين العرب هو القدرة

على إقناع الناس بأن هناك علاقة مباشرة بين الانتماء والمصلحة». وثانيهما دعوة النخب والمثقفين العرب لتقديم المشروع القومي العربي بصورة مشروع انتماء، مع تأكيده على وجوب التخفيف من «الجرعات» العقائدية. وهنا يتضح أن الدعوة تريد القول إن لا بديل عن المشروع القومي العربي، «لأنه يمثل بالدرجة الأولى ضرورة للبقاء، وضرورة لحفظ الذات الجماعية العربية، ثم إنه يمثل هوية حضارية يعرفنا بها الخارج ويتعاطى معنا من خلالها، وإن كان من الضروري الخروج من حالة الجمود التي استولدتها «الزلازل» التي شهدتها المنطقة على امتداد العقود المنصرمة».

في ختام هذا التحليل لمرجعية الرئيس بشار الأسد، ورؤية حزب البعث العربي الاشتراكي للمشروع القومي العربي، يمكن وصف العقدين الأخيرين بمرحلة المراجعة ونقد الذات. فعلى ضوء العدوان الذي تواجهه سورية، أصبح من المعقول أن ينصب جهد قيادة الدولة والحزب حول مراجعة جوانب الفكر والعمل القومي على أمل أن تظهر أفكار جديدة وبرنامج قومي ناضج من حيث قابلية تنفيذه وتكيفه مع الظروف التي تمر بها سورية والوطن العربي. وإنه من غير المبالغ به القول إن جانباً لا بأس به من الإضافات النظرية على الخطاب القومي جاء من واقع الممارسة اليومية للعمل القومي من طرف القيادة السورية وكوادر حزب البعث من كتاب ومناضلين ميدانيين.

المراجع:

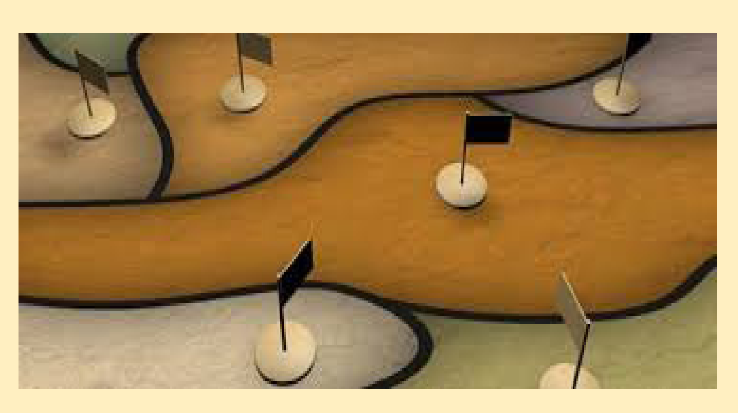
- د. خلف الجراد، القائد القومي بشار الأسد: قراءة تحليلية-مفاهيمية في كلماته الجماهيرية والرسمية (الأعوام 2000-2010م)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب- وزارة الثقافة، دمشق، 2020.
- د. إبراهيم ناجي علوش، القائد القومي بشار الأسد: قراءة تحليلية-مفاهيمية في كلماته الجماهيرية والرسمية خطاب سنوات الحرب (الأعوام 2011-2019م)،منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب-وزارة الثقافة، دمشق 2020.



- د. سامي كليب،خطاب الأسد من الإصلاح إلى الحرب، دار الفارابي، بيروت، 2018.
- منير الحمش، حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية (1953-2005)، في: الأحزاب والحركات والتنظيمات القومية في الوطن الملكي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012.
- د. عبد اللطيف عمران، «الهويّة الجامعة: العروبة الحضارية والعروبة السياسية»-صحيفة البعث، 2017.
- د. عبد اللطيف عمران، «الدبلوماسية الروحية في مواجهة المشروع القومي»-صحيفة البعث، 2022.
- د. عبد اللطيف عمران، «الفكر الجديد لحزب البعث: البعث بين النظرية والممارسة» -صحيفة البعث،2009.
- د. عبد اللطيف عمران، «هل تضرّر الحزب من الحرب؟»- صحيفة البعث، 2021.
- د.عبد اللطيف عمران، «الحياة الحزبية المعاصرة: البعث والتصحيح» -صحيفة البعث، 2019.
- دستور الجمهورية العربية السورية: http://www.mod.gov.sy/index.php?node=551&cat=3858
- Abu Jaber K.,The Arab Bath Socialist Party:History, Ideology and Organization,Syracuse University Press,New York,1966.

بين الدولة الحديثة ونقادها

ابراهيم علوش



يكاد مصطلح «الدولة الحديثة» في الخطاب العربي المعاصر يتحول إلى شتيمة. فهي مصدر كل الآفات العربية بحسب بعض التيارات الرائجة نخبوياً، والتي يعمل إسلاميون وليبراليون كثر على تعميمها شعبياً. فهي، في عُرف بعض الإسلاميين، إما العائق الرئيس أمام «العودة إلى منابع التراث» والانسجام مع الذات حضارياً، أو أنها، في عُرف بعض الليبراليين، العائق الرئيس أمام «التقدم إلى الأمام» والانسجام مع العالم ديموقراطياً، أو أنها الاثنان معاً، في عُرف تيار «الإسلام المدني الديموقراطي»، والذي عملت «مؤسسة راند» الأمريكية التابعة للبنتاغون على بلورته بعد ضربات 11 سبتمبر عام 2001.

والمقصود بـ»الدولة الحديثة»، في عُرف هؤلاء وأولئك والتوليفات بينهما، هو الدول التي نشأت بعد جلاء الاستعمار في الوطن العربي، أو شبه جلائه بالأحرى، مع أنها نسخة مشوهة عن الدولة القومية التي نشأت في الغرب، لأنها ليست دولة-أمة Nation-state، بل دولة تجزئة، من بين أشياء أخرى.

وحيثما تجد محاولة للتأصيل النظري في مثل ذلك الخطاب الناقد للدولة الحديثة، الدولة القومية، فهو يمتد أحياناً إلى الدولة الحديثة في الغرب: أصولها، وواقعها، وأزماتها. ولكنك لا تجد النقد يطال الدولة الحديثة إذا حكمها نظام أردوغان في تركيا، ولا تجده يطال الدولة الحديثة (دولة التجزئة) التي حكمها تحالف إسلاموي-ليبرالي في تونس المعاصرة بعد ما يسمى «الربيع العربي».

ينصب النقد على الدولة الحديثة، عربياً، من زاويتين: 1) بُعدها عن التدين، من منظور إسلامي، و2) مركزيتها وهرميتها وعدم التزامها مقاييسَ الشفافية والحوكمة وحقوق الإنسان إلخ...، من المنظور الليبرالي. والطريف أن المنظورين يجتمعان



في صب جام غضبهما على الدولة الحديثة في النسخة المحدثة «الكيوت» cute من الإسلام السياسي، الإسلاموية-الليبرالية، كما نجد في «العربي الجديد»، قناةً تلفزيونيةً وموقعاً إلكترونياً.

حول نقد الدولة الحديثة من زاوية دينية:

ينطلق النقد الإسلامي للدولة الحديثة، أي دولة التجزئة في الوطن العربي بعد الاستعمار، من علمانيتها المزعومة واستنساخها للنمط الإداري المستل من قيم الحداثة الأوروبية، بعيداً عن فكرة «حاكمية الله» التي طرحها الخوارج في فجر الإسلام، والتي بلورها أبو الأعلى المودودي في الهند في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين كخطاب ديني مناهض للانتخابات التي كانت تدعو إليها حركة التحرر الهندية من الاستعمار البريطاني؛ وهو ما صب في جيب الاستعمار البريطاني وقتها، في شق الصفوف طائفياً، ما بين مسلم وهندوسي، وفي مواجهة البرنامج السياسي لحركة الاستقلال الهندية؛ تماماً كما رفعت حركة الإخوان المسلمين شعار «القرآن دستورنا» في مواجهة حركة الاستقلال المصرية المطالبة بدستور وانتخابات إلخ... إبان الاحتلال البريطاني لمصر.

من المعروف أن سيد قطب تحديداً، من بين من تأثروا بأبي الأعلى المودودي، أعاد إنتاج فكرة «حاكمية الله» عربياً، في سياق اقترن بوهبنة الحركة الإسلامية (نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب، ونسبةً إلى ابن تيمية في المحصلة). وثمة نسخٌ مخففة اليوم من فكرة الحاكمية تترك حيزاً براغماتياً أرحب للتنظيمات الإسلامية لكي تشارك في الحياة السياسية المدنية، ابتداءً من «الحكم بما أنزل الله»، كشرط للاعتراف بمشروعية الحكم، وصولاً إلى «عدم الحكم بما يخالف شرع الله»، وصولاً لإبراز مفهوم الشورى، بدرجات متفاوتة، بحسب الكاتب، بالاقتران مع المشاركة المدنية من أجل معارضة أي تشريع أو إجراء يخالف شرع الله من وجهة نظرهم.

ولذلك، من الطبيعي أن تجد على موقع «الجزيرة نت» مثلاً مقالاتٍ تحاول إيجاد نقطة توازن ما بين خط «الحاكمية الإلهية» والحاجة البراغماتية لحركة الإخوان المسلمين للمشاركة في الحياة السياسية المعاصرة، لا سيما بعد ما يسمى «الربيع العربي»، من دون أن تبدو كأنها تخلت عن مبدأ الحاكمية الإلهية التي كرسها

سيد قطب، والتي سعى إخوانٌ آخرون من بعده للتخفيف من تشددها من أجل تسهيل الانخراط في الاستعراضات «الديموقراطية» في الإقليم (انظر «التياران الإسلاموي والليبرالي عندما يتقاطعان على أرضية المشروع الأمريكي في الإقليم»، طلقة تنوير 52).

تبقى معضلة الإسلاميين الذين يصرون على مبدأ الحاكمية الإلهية، أو ما هو أقل منه تشدداً، في رفض أي مرجعية أو محاكمة دنيوية للحكم السياسي، هو أنه يشبه مبدأً غربياً آخر، من لجة القرون الوسطى الأوروبية الكاثوليكية، وهو مبدأ «الحق الإلهي»، ومفاده أن الملوك يحكمون بموجب حقٍ إلهي يجعلهم نواباً أو وكلاء لله عز وجل على الأرض للشؤون الدنيوية «التافهة»، مثل جمع الضرائب وإنفاقها وشن الحروب واتخاذ قرارات الإعدام والسجن أو مصادرة الأملاك أو تعيين مسؤولين موكلين من طرفهم لاتخاذ مثل تلك القرارات، وإلى ما هنالك من «صغائر»... من دون أن يُساءلوا فيها بتاتاً من جانب الرعية (وهي رعية، لا مواطنون).

ولن ندخل في جدالٍ هنا حول أيهما أسبق عهداً، الخوارج أم الكنيسة الكاثوليكية، في طرح مبدأ الحكم الإلهي بواسطة الملوك أو الخلفاء، وفي شرعنة إمضاء القرارات باسم الحاكمية الإلهية بعيداً عن أي مرجعية دنيوية، أو حتى عقلية، لأن مثل تلك الفكرة، التي تعني حكماً ثيوقراطياً مطلقاً فعلياً، في هذه الدنيا وعلى هذه الأرض، سوف ينتجها أي منهج متشدد دينياً، سواءٌ كان مسلماً أم مسيحياً أم يهودياً أم هندوسياً أم غير ذلك. ونقول «ثيوقراطية»، لأن الزعم بالحكم نيابةً عن الله عز وجل يستتبعه بالضرورة وجود شريحة اجتماعية، من رجال الدين، أو الإكليروس، أو الفقهاء والأوصياء، تتحكم بالموارد الدنيوية، أو تمنح المشروعية الدينية لمن يتحكم فيها، مقابل المشاركة في ثمراتها، كما كانت عليه الحال في النظام الإقطاعي مثلاً غرباً وشرقاً.

وليست هناك مشكلة، من منظور سياسي مدني، في أن يكون الدين أحد مصادر التشريع، كما أن العُرف هو بالضرورة أحد مصادر التشريع، وكما لا بد من أن تؤثر المعاهدات الدولية أو التوجهات الفكرية للحاكمين والمحكومين في طبيعة القوانين والتشريعات المعاصرة في أي مجتمع.



لكن السؤال يبقى: أي تأويل للدين هو الذي يفترض أن يصبح مصدراً من مصادر التشريع، أو حتى مصدر كل التشريع؟ وهو سؤالٌ كبيرٌ، لأن النص ثابت، لكنّ قراءته هي التي تتغير بحسب تغير الزمن والظروف وتزايد المعرفة والخبرة البشرية والمجتمعية. فإذا عددنا قراءة فقهاء القرون الوسطى للدين هي الدين بذاته، في أي دين، فإن ذلك يختلف تماماً عن اعتبار النص ومعناه وتأويله العقلي في العصر الراهن هو المرجع، ولو بحسب أغلبية الفقهاء، وبأنه هو الدين. وثمة مذاهب في أي دين، وثمة اجتهادات، فهل نحن ملزمون بالقياس على النص وأحكامه وأسباب نزوله بناءً على ظروف عصرنا، أم أننا ملزمون بالقياس على ما جاء به فقهاء القرون الوسطى؟ وإذا كان فقهاء القرون الوسطى مرجعنا، فأيهم؟ الغزالي مثلاً أم ابن رشد؟

يدلل سجل الوقائع والأعلام على أن الفترة الأكثر خصوبةً وحيويةً فكرياً وسياسياً وثقافياً في التاريخ العربي بعد الإسلام هي الفترة الممتدة بين بدء الدعوة الإسلامية، في القرن السابع، حتى سيطرة السلاجقة على الحكم في القرن الحادي عشر. وقد تميزت تلك الفترة بميزة أساسية هي اتساع حيز الاجتهاد العقلي، صواباً أم خطأً، واتساع الوعاء العربي-الإسلامي بأريحية للحراك الثقافي والإنتاج المعرفي بتلاوينه المختلفة، لأن تراث فقهاء القرون الوسطى لم يكن قد تأسس بعد، ولم يكن قد فرض فرضاً من طرف سلطة ثيوقراطية متكلسة. لكنْ، قبل الاستمرار في هذه المعالجة، علينا أن نتذكر، على الهامش، أن مثل ذلك الإنجاز الحضاري ولد في أحضان دول مركزية قوية، لا في إمارات الطوائف والجهويات المفككة.

وكما ارتبط اسم أبي حامد الغزالي بالقضاء على المنهج العقلي، النقدي التحليلي، في الفكر العربي-الإسلامي، من الأهمية بمكان أن نشير إلى ارتباطه مباشرة بحكم السلاجقة، إذ إن الغزالي كان موظفاً براتب عند نظام الملك (خواجة بزك)، وزير الملك السلجوقي ألب أرسلان ثم عند ولده ملكشاه. وقد أنشأ نظام الملك المدارس النظامية التي فرضت تأويلاً رسمياً للدين، وأصبح التخرج من تلك المدارس، التي كان الغزالي أستاذاً فيها، شرطاً لتولي المناصب الحكومية.

لذلك، يمكن القول إن انحطاط العرب سياسياً بدأ عندما تولى الأتراك السيطرة على الخلافة، أما انحطاطهم فكرياً، فبدأ عندما توقفوا عن التفكير والاجتهاد

بفضل النهج الذي مثله الغزالي ورسخه السلاجقة كتوجه رسمي للدولة. ولم ينجُ من مثل هذا المصير، مؤقتاً، إلا الحكم الفاطمي في مصر، والحكم العربي-الإسلامي في الأندلس، بفضل تأخر زحف التصحر الحضاري إليهما جغرافياً وزمنياً. وقد ولد ابن رشد في قرطبة، في الأندلس، بعد وفاة الغزالي في طوس، في إيران، بخمسة عشر عاماً. وتوفي ابن رشد في نهاية القرن الثاني عشر في مراكش عام 1198 م.

تأثر بابن رشد ومنهجه عددٌ كبيرٌ من مفكري الغرب وفلاسفته، منهم سبينوزا، على سبيل المثال لا الحصر. والعبرة مما سبق هي أن الدين والتدين ليسا عائقاً أمام نشوء مجتمع مدني وإبداع حضاري. على العكس تماماً، يثبت التاريخ العربي-الإسلامي أن الدين والتدين يمكن أن يشكلا دافعاً عميقاً لإنتاج الدول والحضارات عندما يقترنان بالعقل والعمل والإنتاج. أما ما وصلنا اليوم، فليس التدين العقلي المنتِج والحضاري الذي أنتجه العرب في الثلاثمئة عام الأولى للإسلام، أو الذي أسسوه في القرون الأولى لحكمهم في الأندلس، بل هو معطىً آخر موازٍ أسس له السلاجقة، وتراكمت فوقه رواسب المماليك، ثم رواسب العثمانيين، ثم رواسب الاستعمار الحديث الذي لم يترك دولاً حديثةً في بلادنا، بل كيانات ضعيفة قابلة للتفجير من الداخل والسحق من الخارج. لذلك، من التجني بمكان وصف دولة التجزئة القُطرية بأنها دولةٌ حديثة، قبل المضي في طريق إدانتها بمثل تلك «التهمة».

والحال أن ما لدينا اليوم عبارة عن ألف عام من الاستلاب، استلاب العرب عن ذاتهم، واستلاب الإسلام عن العقل ضمن أجندة هيمنة خارجية، تركية ثم غربية. وتتجلى النقطة الأخيرة بالذات في طريقة توظيف الإرهاب التكفيري غربياً (وتركياً) في التاريخ العربي الحديث والمعاصر (وللمزيد حول هذه النقطة، الرجاء مراجعة مادة «حركات الإسلام السياسي كمنتج للحداثة الغربية»، طلقة تنوير 31).

حول نقد الدولة الحديثة من زاوية مركزيتها وتهميش «الإنسان-الفرد» و«المجتمع المدني»:

إذا كان نقد الدولة الحديثة، عند بعض الذين يزعمون التدين، مرتكزاً إلى فقه القرون الوسطى، أي إلى البنية الفوقية لمرحلة التفكك الإقطاعي المتظلل بإمبراطورية



ثيوقراطية عابرة للأمم والقوميات، أي إلى البنية الفوقية لمرحلة ما قبل الحداثة، فإن نقد الدولة الحديثة المعاصر، في الغرب، والذي يردده المتأثرون بفكر ما بعد الحداثة في بلادنا، يمثل صدىً لمشروعٍ آخر هو مشروع العولمة المعنيّ بتفكيك الكيانات السياسية المركزية وبإحلال الهيمنة العالمية للشركات العابرة للحدود محلها. من هذه الزاوية يجري الحديث اليوم عن «طغيان الدولة المركزية ومؤسساتها» على الفرد، و»المجتمع المدني»، والأقاليم، والأقليات، إلخ... كذرائع إنسانوية في المظهر، ليبرالية حديثة في الجوهر، لتفكيك مؤسسات الحداثة السياسية ذاتها، لا الدولة المركزية وبيروقراطيتها فحسب، بل الأحزاب ذاتها، لمصلحة «شبكات القضية الواحدة»، مثل الدفاع عن حقوق البيئة أو المرأة المعنفة أو الأطفال المتوحدين إلخ...؛ وتفكيك المنظومة التعليمية الموحدة، لإحلال منظومات تعليمية مختلفة محلها؛ وتفكيك صلاحيات الدولة عموماً، والمؤسسات التي تشرف على تلك الصلاحيات، لمصلحة القطاع الخاص (الأجنبي غالباً) أو الجمعيات غير الحكومية (الممولة أجنبياً في الأعم الأغلب).

وإذا كان النقد الأصولي للدولة الحديثة يرتكز إلى جدارٍ ما في تراثنا، وثمة جدران كثيرة غيره أقوى وأجمل، فإن النقد الليبرالي الحديث للدولة الحديثة يستند إلى تغريب الوعي، وتبديد الهوية، وإلى مشروع استراتيجي هو إحلال الفرد اللامنتمي والمنقطع الجذور محل «المجتمع»، تحت ستارة الدفاع عن «المجتمع المدني». وفي الطريق إلى تحقيق مثل ذلك الهدف، لا بأس من تشجيع كل نزعة تضعِف الدولة الحديثة، سواء كانت طائفية أو عرقية أو جهوية، لا سيما إذا كانت عابرة للحدود، بحيث تنشأ روابط طائفية مثلاً أو عرقية أعلى منزلةً من الانتماء الوطني. فإذا لم يتح ذلك، لا بأس بأي مشروع تفسيخ اجتماعي تحت أي شعار، فالمجتمع المدني الذي يجري الحديث عنه هنا هو «المجتمع المدني الكوني»، لا الوطني أو القومي، فذلك يمثل البيئة المثلى للعولمة، والتي ترى الدول الوطنية عدوها الأول.

وحيث أنني سبق أن نشرت عدداً من المقالات حول البعد السياسي لما بعد الحداثة في مجلة «طلقة تنوير»، فإنني سأعيد القارئ الكريم إلى عناوينها إذا رغب بالاستزادة حول الجوانب المختلفة لمشروع تفكيك الدولة المركزية ومتعلقاتها لمصلحة العولمة ضمن أفق ما بعد حداثي:

1) «مفهوم الحداثة بين النهضة والاستلاب»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 3، 1 آب 2014،
2) «عن الإمبريالية: تطورات علاقات الإنتاج في التسعينيات وما تلاها»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 13، 1 حزيران 2015.
3) «هل انتهى عصر الأحزاب السياسية حقاً؟»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 43، 1 كانون الأول 2017.
4) «دور الجمعيات غير الحكومية الممولة أجنبياً في إضعاف الهوية القومية»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 51، 1 آب 2018.
5) «في الأساس الاقتصادي لأفول الأيديولوجيا في العمل السياسي»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 60، 1 أيار 2019.
6) «المجتمع المدني كمفهوم مخترق إمبريالياً»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 64، 1 أيلول 2019.
7) «الليبرالية وأنواعها وتناقضاتها وانقلاب دورها المعاصر»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 73، 1 كانون الثاني 2021.

المشكلة هي دولة التجزئة، والدولة القومية الحديثة هي الحل:

نضيف أن مشكلة دولة التجزئة القُطرية، الدولة العربية المعاصرة، تتمثل بأنها ضعيفة، وبأنها ليست دولة مركزية بما فيه الكفاية، وهي لن تتمكن من التحول إلى دولة مواطنة، يتساوى فيها المواطنون بالحقوق والواجبات، إلا إذا أصبحت دولة وحدة قومية، تشرف على الانصهار الاجتماعي-السياسي لما يسمى «مكونات» المجتمع العربي. وهذا بدوره لن يحدث من دون مشروع قومي يحقق أهداف الوحدة والتحرير والنهضة. فإذا كان الغرب قد حقق مثل ذلك الانصهار من خلال الثورة الصناعية وعصري النهضة والتنوير، فإن مشروع النهوض القومي الذي حمله محمد علي باشا وابنه إبراهيم في القرن التاسع عشر، ومن ثم حملته الحركات القومية التحررية في القرن العشرين، مثل الناصرية والبعث



وحركة القوميين العرب، لم يقيض له أن يتحقق.

والفرق بين الدول التي أسسها القوميون في الوطن العربي، منذ القرن التاسع عشر، وبين دول التجزئة القُطرية المعاصرة التي أسسها الاستعمار، أن الدولة القُطرية ذات التوجه القومي تصبح حاملاً لمشروع: أ – وحدة عربية، وب – انصهار اجتماعي، أي مواطنة. وهذا يعني أن الدولة القُطرية ذات النزعة الوحدوية النهضوية هي دولة وحدة بالقوة، ولو لم تصبح دولة وحدة بالفعل، ومن هنا خطرها على منظومة الهيمنة الخارجية وأدواتها المحلية. إن دولة محمد علي باشا في مصر، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، تمثل هنا نموذجاً فذاً لمشروع دولة حديثة حقيقية لأنها سعت إلى تحقيق الوحدة بتجاوز حدودها القُطرية، وإلى النهوض والتحديث بكل ما للكلمة من معنى. ولو جاز أن نستخدم تعبير الفيلسوف الألماني هيغل عن أن الدولة تمثل تجسيداً للروح المطلق، لقلنا إن دولة محمد علي كانت تمثل تلك الروح بالنسبة للأمة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ومن البديهي أن هيغل نظر للدولة بمثل هذه الطريقة لأن ألمانيا في تلك الفترة كانت في طور التوحد والنهوض، وكانت ألمانيا مفككة إلى عشرات الدويلات والإمارات وقتها.

فقط الدولة المركزية يمكن أن تحشد الموارد اللازمة لتوحيد الأمم وللدفاع عنها. ولنلاحظ في أوروبا أن مرحلة الحكم المطلق أعقبت التفكك الإقطاعي مباشرةً. وبعدما تأسست الدولة القومية واستقرت، وترسخ مفهوم المواطنة، فوق الطوائف والإثنيات والمناطق، أصبح من الممكن الحديث عن حقوق مواطن، لا عن حقوق طائفة أو أقلية عرقية أو منطقة. ومن تاريخنا القديم في أحواض الأنهار مثل النيل ودجلة والفرات، نرى أن الدول المركزية القوية كانت شرطاً لازماً لتنظيم الري والسدود والقناطر ومواجهة الفيضانات، أي لتنظيم الحياة، وهو ما عُرف باسم «نمط الإنتاج الآسيوي».

نقول إن دولة المواطنة القومية لا يمكن أن تنشأ إلا في ظل دولة مركزية قوية ترسخ الوعي القومي والحس القومي، دولة تنهض بالاقتصاد العربي كماً ونوعاً، وتؤسس البنية التحتية سياسياً لأمة عربية واحدة من خلال جيش واحد واقتصاد واحد ومؤسسات دولة واحدة، ونقول إن كل ذلك لم يتحقق بعد في وطننا العربي كما تحقق في الدول التي أنجزت مشروع الدولة الواحدة، من الصين إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ولذلك لما نزلْ مفككين اجتماعياً، لا سياسياً فحسب، لأننا لم نمر بطور التحول الاقتصادي-الاجتماعي الذي يحولنا من قبائل أو طوائف أو أعراق أو جهات إلى مواطن عربي فحسب.

في مثل تلك الظروف، يمثل الحديث عن تفكيك الدولة العربية المعاصرة، التي تعبر أصلاً عن تفكيك، جريمةً سياسية نكراء، لأن ذلك يعني تحويل الوطن العربي إلى 40 أو 50 دويلة على الأقل. ومن هنا، نقول إن مشكلة الدولة العربية هي أنها ليست مركزية بما فيه الكفاية، لا أنها مركزية أكثر من اللزوم.

وكما جرت الإشارة في مستهل الفصل الثالث من كتاب «مشروعنا: نحو حركة جديدة للنهوض القومي»:

يثبت تاريخ الوطن العربي أن تاريخ المناطق والعشائر والطوائف هو تاريخ التخلف، بينما كانت تقوم النهضة العربية دوماً على أكتاف الدولة المركزية والحكم المركزي المعبر عن مصلحة الأمة. فإما الأمة الموحدة في ظل دولة مركزية قوية، سواء كانت دولة نبوخذ نصر أو دولة الخلافة التي يحكمها العرب، أو الفقر والضعف والتأخر في ظل الخراب المحلي.

وقد كانت هزيمة الدولة المركزية أمام قوى الهيمنة الخارجية، وتفككها، دوماً مقدمة لهيمنة الخاص على العام، العشيرة على الوطن، الطائفة على الانتماء، والجهة أو المحلة على الأمة، مما أدى تاريخياً لشيوع ثلاث ظواهر متلازمة بالضرورة تغذي كل منها الأخرى منذ الأزل العربي هي: 1) التجزئة، 2) الاحتلال الأجنبي المباشر أو غير المباشر (التبعية)، 3) والتخلف.



بالمقابل، كان المشروع الوحدوي، وأهم مثال عليه في تاريخنا هو الدعوة النبوية، هو نفسه مشروع التخلص من الهيمنة الأجنبية، وهو نفسه مشروع بناء الدولة المركزية، الوحيدة القادرة أن تؤمن إطاراً من الاستقرار الداخلي والخارجي، ومن عناصر القوة، لتحقيق تنمية اقتصادية وقفزات حضارية حقيقية...

وما برح هذا القانون يحكم الحياة العربية المعاصرة. إذ إن المشروع النهضوي العربي لا يمكن أن يتحقق من دون دولة مركزية قوية توفر له عناصر القوة وتحميه، دولة قوية قادرة أن تعبر عن مصلحة العام على حساب الخاص. فالأمة العربية الممتدة عبر الصحارى الشاسعة، والمكشوفة على أطول شواطئ في العالم، بالمطلق وبالنسبة لمساحتها البرية، والمتناثرة مراكزها الحضارية عبر عدة مناطق زمنية، والواقعة في عقدة طرق التجارة العالمية البرية والبحرية والجوية، لا يمكن أن تنهض من دون دولة مركزية قوية.

ولا حقوق للمواطنين في الأمم الضعيفة المستعبدة، ولا تحرر للفرد أو للأقليات حيث يرزح الوطن برمته في ظل الاحتلال والهيمنة والتشرذم والفقر والتخلف، ولا ازدهار للمناطق القصية في المراكز التي يكون ولاؤها لذاتها فقط، بعيداً عن مصلحة الأمة.

فالدولة المركزية القوية المستقرة المزدهرة هي الإطار الوحيد الذي يمكن أن يتربع في ظله الحكم المحلي والفرد الحر. أما العصبيات الجاهلية، الطائفية والعشائرية والإثنية، فهي النقيض الموضوعي لجوهر رسالة الإسلام وللمشروع النهضوي العربي في آنٍ معاً، وهي لا تمثل دفاعاً عن المواطن في وجه طغيان الدولة «الحديثة»، بل تمثل إعادة إنتاج، بلبوس معارض للحداثة الاستعمارية ولأنظمة التجزئة العربية، لمشروع التفكيك، مشروع القوى المعادية للأمة. فهو فكر معارض للحداثة فعلاً، ولكنه بهذا المعنى ليس معارضاً للاستعمار، لأنه يكرس خط ما بعد الحداثة القائم على تفكيك المعنى الواحد و«الروايات الكبرى»، ومنه «رواية» الأمة الواحدة.

أخيراً، نرى أن وطناً عربياً شاسع المساحة مثل وطننا الذي تبلغ مساحته 14 مليون كم مربع، وطناً مفتوحاً على القارات القديمة كان عبر التاريخ معبراً للغزوات والهجرات والتجارة العالمية، وطناً يمتلك أطول شواطئ في العالم بالنسبة لمساحته البرية، وطناً تتركز كثافته السكانية في أشرطة ضيقة من المساحة الإجمالية ويتألف ما عدا ذلك من مساحات مهولة من الصحارى المقفرة المفتوحة، إن وطناً كهذا لا يمكن أن يتوحد وأن ينهض وأن يحقق أمنه القومي إلا على يد دولة عربية مركزية تقزِّم أية دولة مركزية سبق أن عرفها التاريخ البشري، دولة مركزية تليق بمشروع النهوض العربي، وبمكانتنا كأمة على هذه الأرض.

وليس القصد من كل ما سبق، بالطبع، التغاضي عن مشاكل الفساد وسوء الإدارة في الدولة القُطرية العربية المعاصرة، ولا أننا ضد حقوق المواطن أو أننا نناهض حقه في المشاركة في اتخاذ القرار. على العكس تماماً، ومرة أخرى، نحيل من يرغب إلى المواد التالية:

1) «هل يتوجب على القوميين أن يتبنوا دولة التجزئة في زمن التفكيك؟»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 12، 1 أيار 2015.
2) «مسألة الديموقراطية في البرنامج القومي الجذري»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 17، 1 تشرين الأول 2015.
3) «النزعة القبلية في الشخصية العربية المعاصرة»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 39، 1 آب 2017.
4) «الظاهرة الطائفية العربية: هل العلمانية نقيضها المباشر حقاً؟»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 40، 1 أيلول 2017.
5) «قراءة في أزمة الدولة القُطرية العربية»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 58، 1 آذار 2019.
6) «مسألة المواطنة والديموقراطية في الدولة القُطرية العربية المعاصرة»، مجلة «طلقة تنوير»، العدد 62، 1 تموز 2019.

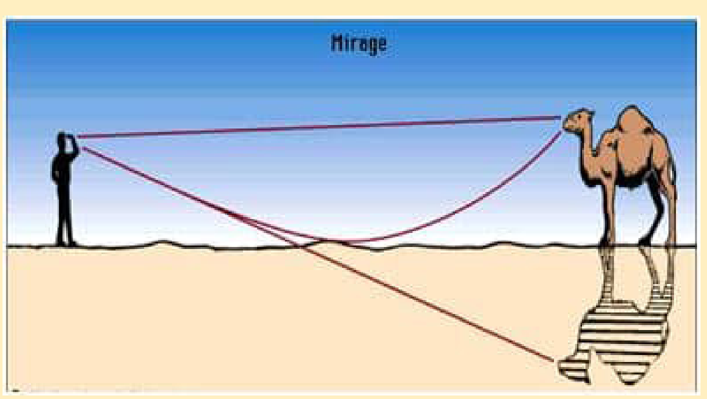
طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 82
01 تموز 2022



مقدمة في الرد على فرضيات «التوراة خرجت من جزيرة العرب»

فارس سعادة

تنويه: (كاتب المقال لا يعترف بالتوراة ويرفض تاريخية أحداثها ويعتبرها جمعاً مسروقاً ومزوراً ومحرّفاً للتراث العربي القديم).



يعتبر الماضي ساحةً خصبةً للكتابة والدراسة لكل العلوم الإنسانية، إذ يتكون الماضي من عناصر لا يمكن حصرها هنا، إلا أن الزمان والمكان يشكلان الإطار الرئيسي للماضي وللأحداث التاريخية بالإضافة إلى العنصر الفاعل والرئيسي، ألا وهو الإنسان الجماعة، لا الفرد. وفي هذه المقالة يستبدل مصطلح المكان بالجغرافيا، والزمان بالماضي، والإنسان بالتوراة ومؤلفيها.

تستند العلوم الاجتماعية إلى الإنسان كأساس مادي لها، إذ إن دراسة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات تستند إلى منهجٍ تجريبيٍ بحتٍ يعتمد على واقعٍ معينٍ وعلى ماضٍ معلوم بشكل أو آخر، أي إن تجربة الإنسان في الماضي وخبرته وأعماله أصبحت نوعاً من فأر التجارب لهذه العلوم وعلى رأسها علم التاريخ، أو التأريخ، وعلوم الإنسان والآثار. وهنا، وفي هذه المقدمة، يعتلي علما التاريخ والآثار رأس الهرم في نقد فرضيات محددة بذاتها لكي يكون النقد مرتكزاً على أساسٍ ماديٍ ومعرفيٍ بحت وأقرب ما يكون إلى الموضوعية التي ربما تختزل الكثير من الماضي في ثنايا هذه المقدمة.

تمثل التوراة الكتاب الروحي لكل يهود العالم، ويحصر هذا الكتاب الصراع في جغرافيا محددة من قبل كتاب التوراة بحيث أصبحت هذه الجغرافيا موقع صراع حديث يختلف عليه كثر ويتم التنظير حوله، وذلك نتيجة ترابط هذه الأحداث «التاريخية» بالحاضر اجتماعياً وسياسياً وعسكرياً. فالصراع العربي – الصهيوني يشتعل يوماً بعد يوم بحيث انتقل هذا الصراع إلى كل مجالات الحياة، فهو صراع وجودي يومي يختزل مأساة شعبٍ عربيٍ بأكمله. وفي المقابل، يتم التلاعب بالقارئ العربي تحديداً من خلال محاولات طبع التوراة بصفة الحقيقة التاريخية عبر حيل عديدة أهمها التلاعب بالجغرافيا لصالح النص التوراتي.

تعود هذه الفرضية إلى بدايات القرن العشرين، فقد شكك المستشرق النمساوي (Alois Musil)، في أصل جغرافيا التوراة، بالإضافة إلى المستشرق الإنجليزي David Samuel)) الذي قال بأن اليمن، وسبأ تحديداً، هي أرض التوراة وأحداثها. هذه الادعاءات تحمل الكثير من الضعف، وذلك بالنظر إلى خلفية هؤلاء المستشرقين، فمثلاً ديفيد صامويل مختص في شؤون العرب قبيل الإسلام، والشعر العربي تحديداً، وقد أسقط فهمه للأحداث التوراتية وبعض التفاصيل العقائدية في التوراة بأنها تشبه إلى حد ما عادات وتقاليد القبائل العربية قبل الإسلام في اليمن، وهذا إسقاط بلا أي دليل لا تاريخي ولا إثنو-أركيولوجي ولا أثري. وبالرغم من الأصول الاستشراقية لهذه الفرضيات فإن جميع داعمي هذه الفرضيات يتبجحون بأن التفسيرات الأثرية حول التوراة وجغرافيتها ما هي إلا استمرارية للمناهج الاستشراقية في التاريخ وعلم الآثار، وهذا ما يثير الدهشة والاستغراب، ليس فقط بسبب التأصيل الغربي لهذه الفرضية، بل لأن الأب الروحي لهذه الفرضية هو كمال الصليبي الكاتب العربي اللبناني أحد أعمدة فرضية تغيير جغرافيا الأحداث التوراتية.

شغل الصليبي مناصب مختلفة أهمها وأكثرها تأثيراً كان منصب الأستاذية ورئيس قسم التاريخ وعلم الآثار في الجامعة الأمريكية في بيروت، وقد تتلمذ على يد الأستاذ والمستشرق برنارد لويس، الأستاذ الجامعي في جامعة برنستون. لويس البريطاني-الأمريكي مؤرخ ودارس للتاريخ الإسلامي، وقد تنوعت بحوثه حول



التاريـخ الإسـلامي وتاريـخ سـورية، وصـولاً إلـى الصـراع العربي-الصـ ـهيوني. ويعتبـر لويـس مـن أشـد مناصـري الخـط الصهـ ـيوني. فهـو مـن قيـل عنـه «ربمـا هـو مـن أكثـر مناصـري الصهـ ـيونية المتعلميـن ذوي اللسـان المبيـن فـي الأوسـاط الأكاديمية المعنية بدراسـات «الشـرق الأوسـط» فـي قارة أمريكا الشـمالية» (المؤرخ الأمريكـي الشـهير جـول بنيـن- سـتانفورد).

يذهـب الكثيـر مـن النقـاد بشـتى المجـالات إلـى دراسـة وتمحيـص السـير الذاتيـة للأفـراد، وذلـك لمعرفـة الخلفيـة المعرفيـة لهـذا الشـخص أو ذاك. ومـن هنـا ذكرنـا نبـذة صغيـرة حـول الخلفيـة المعرفيـة لنـزوع كمـال الصليبـي نحـو فرضيتـه هـذه، إذ إن أسـتاذه الصهـ ـيوني برنـارد لويـس كان مشـرفه فـي رسـالة الدكتـوراة. ومـن هنـا تنحـاز بعـض الآراء السـطحية إلـى رفـض رأي الصليبـي مـن أساسـه بمجـرد معرفـة خلفيتـه. ولكـنْ، وللأمانـة العلميـة، يذكـر بحـث الصليبـي حـول نقـل جغرافيـا التـوراة بالصلابـة الأكاديميـة مقارنـة بالبحـوث التـي جـاءت بعـده. لذلـك وجـب الـرد عليـه مـن قبـل المختصيـن فـي التاريـخ والآثـار منـذ أول يـوم نشـر فيـه كتابـه المعـروف «التـوراة جـاءت مـن جزيـرة العـرب» الصـادر عـام 1985.

أصبـح الصليبـي مرجعـاً موثوقـاً للكثيـر مـن المثقفيـن العـرب والكتـاب فـي مواضيـع التاريـخ. وفتـح البـاب أمـام التشـكيك بجغرافيـة النـص التوراتـي لا بالنـص نفسـه. وهنـا يسـجل علـى الصليبـي تحويلـه مسـألة التشـكيك مـن دائـرة النـص إلـى دائـرة الجغرافيـا، وهنـا اعتـراف، بشـكل مقصـود أو غيـر مقصـود، «لا نـدري»، بتاريخيـة النـص التوراتـي، فيصبـح الحديـث حـول التـوراة أمـراً لا يتعـدى مسـألة التحقـق مـن أيـن ومتـى حدثـت هـذه الأحـداث التـي تشـكل كمـا يعتقـد البعـض «تاريـخ شـعب وأمـة»! وهنـا تحولـت المسـألة مـن رفـض النـص التوراتـي، باعتبـاره سـرقة وتزويراً وتشـويهاً للتاريـخ المحلـي للمنطقـة العربيـة فـي المشـرق، إلـى مسـألة تأويـل نـص دينـي وتحويلـه إلـى نـص تاريخـي ووثيقـة تاريخيـة تحـدد تاريـخ وهويـة المنطقـة. وهنـا يكمـن الخطـر الكبيـر، الـذي فتـح بـاب النقـاش والحـوار حـول تاريخيـة الكتـب السـماوية الأخـرى! بحيـث تصبـح الكتـب السـماوية كتبـاً ذات دلالـة أثريـة، ومصبـاح عـلاء الديـن الـذي يكشـف أيـن ومتـى حدثـت هـذه الأحـداث.

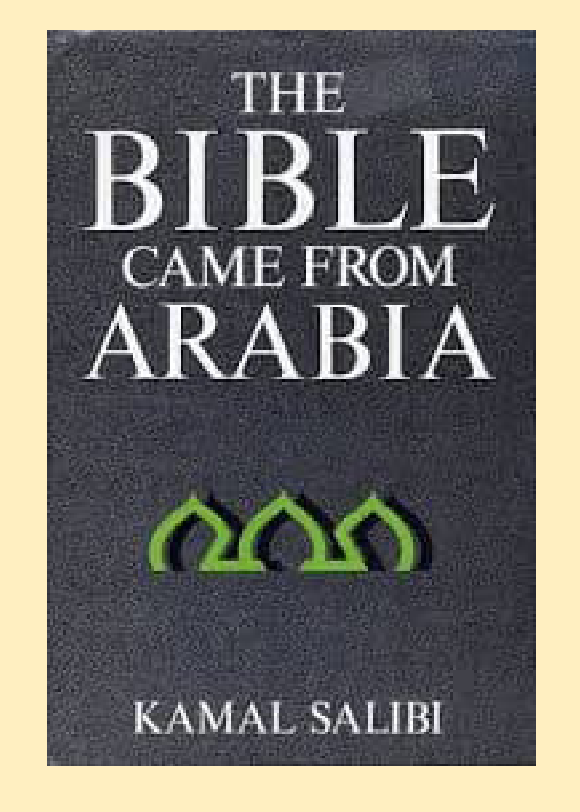
شكّل الصليبي تياراً غير منظم حول موضوع جغرافيا التوراة، فخرج البعض وتمرد على آراء الصليبي، وعلى رأسهم الدكتور فاضل الربيعي الذي قال بفرضية خروج التوراة من اليمن، وأحمد الداود كذلك، وزياد منى الذي حاول أن يثبت أن الأحداث التوراتية حدثت في منطقة عسير في الجزيرة العربية، وفي اليمن أيضاً. واعتمد على علم فقه اللغة للمقارنة بين الأسماء الجغرافية المذكورة في التوراة وبين المدن والقرى الموجودة في الجزيرة العربية. أطروحات مختلفة وفرضيات متعددة ناقشت هذه الجغرافيا المتخيلة، ولكنها حملت عنصراً مشتركاً مهماً ألا وهو الاعتراف بحقيقة هذه الأحداث. بعض هذه الأطروحات لم يشكك سوى بأن التوراة مجموعة من أحداث طبيعية تندرج تحت مصطلح التراث العربي البدوي في الجزيرة العربية، كما قال أحمد الداود، والتي تعرضت للتزوير والتحريف أو سوء الفهم. والبعض الأخر قال إنها أحداثٌ حقيقةٌ تماماً جرت في بيئة يمنية عربية خالصة، تندرج في إطار القبلية وصراعاتها، كما تحدث فاضل الربيعي.

المفقود في جميع هذه الأطروحات هو عدم وجود أي عنصر مادي حقيقي لهذه الفرضيات، أي فقدان العمل والبحث الأثري. فعدم وجود خلفية علمية ومعرفية حقيقية لهؤلاء الكتاب -مع الاحترام لهم- بعلم الآثار، يشكل نقطة ضعف وركاكة علمية في كل فرضياتهم. ففي مقابل هذه الرواية، يمكن القول بكل جدية ورصانة إن التنقيبات الأثرية أثبتت بشكل قاطع عدم وجود أي جماعات بشرية منظمة تحت إطار دولة أو مملكة «إسرائيل ويهوذا» خلال الألف الثاني والأول قبل الميلاد. وفي نفس السياق، تثبت المخطوطات والنقوش والروايات التاريخية، في «المصادر الكلاسيكية»، وجود جماعات يهـودية محلية في مناطق جنوب بلاد الشام خلال القرون الأخيرة قبل الميلاد بالتزامن مع الاحتلالين اليوناني والروماني للمنطقة. ولم تذكر هذه الجماعات أي صلة لها بالجزيرة العربية، بل ولم تكتب أي نقش أو مخطوطة بخطوط تنتمي لجنوب أو غرب أو وسط الجزيرة العربية، بل كتبت بالخط الآرامي على اختلاف هذه الخطوط.



يشكل بحث كمال الصليبي الأساس المنهجي لأغلب الباحثين والكتاب الذين ساروا على أوهام الصليبي. فمنهجياً، اعتمدت فرضية الصليبي، ومن ثم الربيعي، وغيرهم كثر، المنهج اللغوي الركيك، أو لنقل الجغرافيا اللغوية لأسماء التضاريس التوراتية. وهي في الحقيقة مسألة ضعيفة حد الاستنكار، إذ من الغريب عدم دراسة الصليبي ومن لحقه الوثائق والنقوش التاريخية التي عُثر عليها خلال التنقيبات الأثرية المختلفة في فلسطين وبلاد الشام والعراق ومصر. فهي أساس مرجعي رئيسي يمكن، لما تحويه من أصول تاريخية، نسف أي فرضية. والمشكلة في مطابقة الأسماء التوراتية القديمة، بأسماء قرى ومدن موجودة حالياً، تعد أكبر من عدم دراية هؤلاء الكتاب بالوثائق، إذ إن الكثير من الأسماء التي ذكرها الصليبي، على سبيل المثال، في مناطق جيزان وعسير تتشابه وتتطابق مع أسماء قرى حددها فاضل الربيعي في اليمن وغيره من الكتاب، وهي أيضاً موجودة في فلسطين، وبعض أسماء القرى يوجد في بلاد الشام ومصر والعراق وأنحاء مختلفة من المشرق العربي. وزيادة على هذه المشكلة، هناك فراغ أغلب هذه الأماكن الجغرافية، التي يدعي الصليبي والربيعي وآخرون أنها جغرافيا التوراة الأصلية، من أي تنقيبات أثرية، إضافة إلى غياب التراث الشفوي والمكتوب عنها من جهة الأحداث التوراتية. وهنا يطرح سؤال مهم، حول علمية استخدام اللغة لوحدها، بل الأدهى من ذلك هو عدم معرفة هؤلاء الكتاب بهذه اللغات والكتابات. نعم، لا الصليبي ولا الربيعي يعرفان اللغة الآرامية القديمة، والتي كتبت بها التوراة المترجمة إلى اللغة العبرية الحديثة التي طورها علماء لغة صهـاينة خلال القرن العشرين من خلال الاعتماد على لغة اليديش! (المستشرق الألماني ثيودور نولدكه هو من أعلم أوروبا بأن لغة التوراة هي الآرامية، لا العبرية، في نهاية القرن التاسع عشر).

ارتكز الصليبي إذاً على منهج المقابلة اللغوية غير التاريخي، بلا أي اعتماد على أي منهج تاريخي، بالرغم من معالجته لمسألة تاريخية بحتة. كما أن الصليبي والربيعي اعتبرا أن منهجهما اللغوي الناقص يعتبر جزءاً من علم الآثار، وهذا ضرب من الخيال والتزوير حقيقةً، خصوصاً مع جهلهم بهذه اللغات وأصولها.



إضافة إلى كل هذا، فإن منهجية نقل جغرافيا التوراة تجاهلت حقائق اللغات القديمة تماماً من حيث انتشارها، فالآرامية مثلاً سيطرت على مناطق بلاد الشام منذ ما قبل نهاية الألفية الأولى قبل الميلاد، وهو ما تجاهله الصليبي في كتاباته، كما تجاهل عدم وجود تنقيبات أثرية في عسير أو اليمن على سبيل المثال.

يعتمد مناصرو فرضية نقل جغرافيا التوراة من بلاد الشام إلى الجزيرة على العربية على صحة ما كتب في التوراة بشكل كبير. فالصليبي، مثلاً، يؤكد من خلال طرحه صحة ما ورد في التوراة، إذ إن بحثه انطلق من نصوص توراتية خلافية ليس في المجال الثقافي العربي، بل في الغرب، وفي داخل أروقة المراكز البحثية في الكيان الصهـ.ـيو ني أيضاً. مقاربة الصليبي بين الجغرافيا والتوراة لا تختلف بشيء عن مقاربة اللاهوتيين والتلموديين اليهـ.ـود بين التوراة وأحداث المستقبل والخزعبلات الغيبية، فقد تجاهل الصليبي وكل من سار خلفه كل المكتشفات الأثرية الحديثة التي أثبتت بلا أي شك بأن فلسطين هي فلسطين والقدس هي القدس بعيداً عن نفيها لما جاء في التوراة من أحداث ملحمية، فنقد التوراة من خلال علم الآثار الحديث موضوع آخر له مساحة خاصة في مقال آخر.

تجاهل الصليبي لعلم الآثار والبقايا الأثرية وصل إلى حد جهله بأن الكثير من هذه الأسماء الجغرافية التي طابق بين ما ذكر منها في التوراة وما هو موجود في الجزيرة العربية لمدن وقرى وتضاريس، قد ذكرت في الوثائق التاريخية المصرية والسورية والآشورية، وعلى رأس هذه الوثائق التاريخية هي واجهات معبد الكرنك في مصر، والتي تحتوي على أسماء المناطق التي مر بها عدة ملوك مصريين قدماء أثناء حملاتهم العسكرية أهمهم ستي الأول ورمسيس



الثاني وشاشنق الأول وتحتمس الثالث. هذا الجهل أو التجاهل جعل الكثير من المختصين في علم الآثار يستخفون بهذا الطرح مما أدى إلى ركاكة الردود على هذا الطرح في الساحة العربية، فبعيون عالم الآثار لا يوجد دليل أقوى من الدليل المادي، أي المادة الثقافية التي تكتشف خلال التنقيبات، وهي بالمناسبة دقيقة للغاية في كثير من الأحيان، ويمكن تأويلها في أحيان أخرى.

تجاوزت هذه الفرضية ملايين النقوش والكتابات والأختام العراقية والمصرية و(السورية الكنعانية والعمورية والآرامية) -وكلها تنبع من عين واحدة- التي تثبت بأن ما ذكر بالتوراة ما هو إلا تخيلات وتحريف للحياة القديمة في منطقة الهلال الخصيب (بلاد الشام والعراق). هذا التجاوز الكبير على شعب المنطقة وشعوبها القديمة يحول التوراة إلى الوثيقة الأهم تاريخياً في مقابل تاريخ المنطقة القديم المسجل بشكل كبير منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد. وفي الحقيقة هذا هو عين الاستشراق ولبه وهدفه الرئيس.

هناك الكثير ليقال في الرد على فرضية منبع التوراة وأصلها الجغرافي هنا، وعلى رأسها تقاطع المكتشفات الأثرية في العراق ومصر وسورية مع التوراة من ناحية الجغرافيا لا الأحداث، إذ إن المكتشفات الأثرية نفت وجود اليهـ.ـودية ما قبل الألفية الأولى قبل الميلاد، ونسفت جميع الروايات التوراتية، إلا أنها في نفس الوقت، أي المكتشفات الأثرية، أكدت أن من كتب التوراة قد كتبها من خلال إطار معرفي وجغرافي شامي وفلسطيني للدقة.

يجب العلم بأن علم الآثار في فلسطين مورس ضمن إطار صهـ.ـيوني واستعماري، وبالرغم من هذا فقد أسقط كل الروايات التوراتية من زاوية مصداقيتها، وأثبت أن كتّاب التوراة عملوا على قلب الحقائق ودس الخيالات في أسفارهم وذلك لعدة أهداف دينية وعقائدية. ولذلك نجد أن أغلب الأحداث التاريخية التي ذكرت في التوراة لم تحدث كهدم أسوار أريحا التي كشفت التنقيبات الأثرية بأنها هدمت قبل وجود اليهـ.ـودية بآلف السنين مثلاً، كما زودتنا الحفريات الأثرية بعدم وجود ذكر مادي أو معنوي لممالك إسرائيل ويهوذا، وعدم وجود أي ملك باسم داود أو

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 82
01 تموز 2022

سليمان، وفي نفس الوقت فإن بعض المكتشفات الأثرية أكدت وجود صراع في مدن معينة كمدنية تل المتسلم «مجيدو»، إلا أن التوراة زورت ما حدث بشكل كبير، بحسب آخر المكتشفات، والتي يمكن الحصول عليها من خلال مواقع البحث، فهي موجودة بكثرة بالمناسبة، وباللغة الإنجليزية والعربية.

وفي النهاية يأتي منهج الصليبي والربيعي وغيرهم ضمن منهج تصحيحي للتوراة لا ناقد لها وهو اعترافٌ مباشر بصحة التوراة والأحداث التوراتية، ورفضٌ لكل الإرث الحضاري للمنطقة لحسابات توراتية، وإن بشكل غير مقصود، والله أعلم. ولذلك وجب توضيح حقيقة هذه الفرضيات، بل وسيتم تشريح هذه الفرضيات ونقدها ضمن مقالات مختلفة قريباً.

الإمبريالية الإمريكية وحقوق الإنسان العربي

ناجي علوش

(نشرت هذه المقالة في أيلول/ سبتمبر 1991 في مجلة «الفكر العربي»، العدد 65، السنة 12، الفصل 3، في الصفحات 146-135. وهي مادة تظهر سعي ناجي علوش لتعرية خطاب «حقوق الإنسان» في الغرب، ووظيفته كأداة للاختراق والتفكيك، عندما تحول إلى راية لفرض هيمنة القطب الواحد، منذ أكثر من 30 عاماً)

هل نستطيع، ونحن نحاول الكتابة عن حقوق الإنسان العربي، أن ننسى الإمبريالية؟ إننا لا نستطيع حتماً، لأن الإمبريالية، احتلت أرض الوطن، ورسمت خرائط حدود داخله، واصطنعت قوى اجتماعية حاكمة، وبُنى اجتماعية

ملف 2 . حقوق الانسان العربي (أ) دراسات

الامبريالية الاميركية وحقوق الانسان العربي

ناجي علوش(*)

هل نستطيع، ونحن نحاول الكتابة عن حقوق الإنسان العربي، أن ننسى الامبريالية؟. إننا لا نستطيع حتماً، لأن الامبريالية، احتلت أرض الوطن، ورسمت خرائط حدود داخله، واصطنعت قوى اجتماعية حاكمة، وبُنىً اجتماعية مرتبطة، تحافظ عليها بقوة الجيوش. وحوّلت الاقتصاد الوطني إلى اقتصاد تابع، ونهبت الثروات القومية. ولأن الامبريالية ما زالت تفعل ذلك، كما أثبت اغتصاب فلسطين، سنة 1948، وعدوان 1956، وحرب 1973، وحرب الخليج أخيراً. وكما تثبت وقائع التاريخ الحديث، منذ أوائل القرن السابع عشر[1].

وما ينطبق على الوطن العربي، ينطبق على ما يسمى «العالم الثالث» عامة، وأجزاء أخرى من العالم.

ولقد عرف الوطن العربي، منذ بدء الغزوات الاسبانية والبرتغالية، حتى اليوم، أشكالاً من الاحتلال والنهب والقتل والإذلال، لا حدود لها، وما زال يعيش المحنة عينها، رغم التطورات التي حدثت على المستوى العالمي، ورغم قيام الثورة البرجوازية الديمقراطية في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، والثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، سنة 1917.

إن حقوق الإنسان، في الوطن العربي، تواجه إذن مشكلة رئيسة كبرى، معقدة، اسمها الامبريالية عامة.

فما هي هذه المشكلة؟

إن الامبريالية: «هي سياسة، أو هدف مدّ سلطة حكومة وحكمها إلى ما وراء حدود دولتها الأصلية، وإدخال أمم وأراضٍ أخرى، في وحدة سياسية واحدة»[2]. وهي «امتداد للسلطة، من خلال الفتح»[3].

ورغم أن ظاهرة قيام الامبراطوريات قديمة قِدَم قيام الدول، فإن الظاهرة الحديثة ارتبطت بما يلي:

(*) باحث وكاتب فلسطيني ـ دمشق ـ

135



مرتبطة، تحافظ عليها بقوة الجيوش. وحوّلت الاقتصاد الوطني إلى اقتصاد تابع، ونهبت الثروات القومية. ولأن الإمبريالية ما زالت تفعل ذلك، كما أثبت اغتصاب فلسطين، سنة 1948، وعدوان 1956، وحرب 1973، وحرب الخليج أخيراً. وكما تثبت وقائع التاريخ الحديث، منذ أوائل القرن السابع عشر (1).

وما ينطبق على الوطن العربي، ينطبق على ما يسمى «العالم الثالث» عامة، وأجزاء أخرى من العالم.

ولقد عرف الوطن العربي، منذ بدء الغزوات الإسبانية والبرتغالية، حتى اليوم، أشكالاً من الاحتلال والنهب والقتل والإذلال، لا حدود لها، وما زال يعيش المحنة عينها، رغم التطورات التي حدثت على المستوى العالمي، ورغم قيام الثورة البرجوازية الديمقراطية في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، والثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، سنة 1917.

إن حقوق الإنسان، في الوطن العربي، تواجه إذن مشكلة رئيسة كبرى، معقدة، اسمها الإمبريالية عامة. فما هي هذه المشكلة؟

إن الإمبريالية: «هي سياسة، أو هدف مد سلطة حكومة وحكمها إلى ما وراء حدود دولتها الأصلية، وإدخال أمم وأراض أخرى، في وحدة سياسية واحدة» (2). وهي «امتداد للسلطة، من خلال الفتح» (3).

ورغم أن ظاهرة قيام الامبراطوريات قديمة قدم قيام الدول، فإن الظاهرة الحديثة ارتبطت بما يلي: أولاً: تحول مركز قيادة العالم إلى أوروبا. ثانياً: قيام الدول القومية الحديثة، والثورة الديمقراطية، والثورة الصناعية. وقاد العامل الثاني إلى امتلاك الدول الأوروبية تمركزاً نوعياً جديداً، وقدرة عسكرية تجعلها قادرة على الفتوح، ونهب الثروات، وإخضاع الأمم، وتكديس مصادر قوة جديدة؛ مع انعدام القدرة على المواجهة، أو ضعفها في معظم الأحيان.

ولذلك شهدت القرون السابع والثامن والتاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين حروب فتوح العالم، كما شهدت حروب التنافس على المستعمرات.

ولقد أخضعت الدول الأوروبية العالم، وحوّلته إلى مستعمرات ودول تابعة، ورسمت حدوده الجغرافية، وخرائطه السياسية والاجتماعية.

وكان الوطن العربي، ذو الموقع الاستراتيجي، والثروات البائنة والكامنة، مطمح هذه الدول الإمبريالية، فأخذت تهاجمه، وتحتل أراضيه، حتى تم احتلال أراضيه، مع نهاية الحرب العالمية الأولى، ولم يبقَ خارج الإطار الاستعماري إلا قلب الجزيرة العربية (4).

وإذا كانت اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية سنة 1916، قد جسدت نية اقتسام الوطن العربي، فإن اتفاقية سان ريمو العلنية (1920) قد نظمت هذه العملية. وأنشأ الحلفاء عصبة الأمم، إثر الحرب العالمية الأولى، لتكون أداة هيمنتهم الجديدة على الأمم، وغطاء مناوراتهم ومطامعهم التوسعية، إلّا أن قيام ثورة أكتوبر، سنة 1917، وتحرر الكثير من الأمم بعد الحرب العالمية الثانية، أربك هذه السياسة، حتى أواخر الثمانينات، حين اتفقت الدول الكبرى من جديد.

ومنذ 1917 والعالم يعيش صراعاً دامياً، على ثلاثة محاور: الأول: محور كفاح الأمم من أجل الاستقلال، والتحرر من النير الإمبريالي، وبناء دول قومية مستقلة. وقد قدمت الأمم هنا تضحيات باهظة، وخاصة ضد دول الاستعمار الكولونيالي: بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، إسبانيا، وضد الولايات المتحدة الأميركية في أمريكا الوسطى والجنوبية. الثاني: محور صراع الدول الرأسمالية: بريطانيا ـ فرنسا، فرنسا ـ ألمانيا، إسبانيا ـ الولايات المتحدة الأميركية. ولقد قاد هذا الصراع إلى تبلور محورين، أولهما بقيادة ألمانيا الهتلرية، والثاني بقيادة بريطانيا، ومن ثم إلى قيام الحرب العالمية الثانية. الثالث: محور صراع الرأسمالية ـ الاشتراكية الذي بدأ بعد قيام ثورة أكتوبر سنة 1917؛ لينتهي مع أواخر الثمانينات.

وأنتج كفاح الأمم قيام دول كبرى كالصين والهند، ومتوسطة كإندونيسيا، وصغرى كالدول العربية؛ على درجات مختلفة من الاستقلال والتبعية، وعلى مستويات مختلفة من التخلف والتقدم، وكان بعضها كالصين والهند يمثل نموذجاً للتطور والاستقلال. وفي الميدان الثاني، تحول صراع الدول الرأسمالية الكبرى، بعد



الحرب العالمية الثانية، إلى تنافس اقتصادي، من دون حروب، لأن الإمبريالية الأميركية أمسكت بزمام قيادة العالم الرأسمالي، وهي ذات مصادر قوة متعددة وكبيرة، بينما أخذت الدول الأخرى، ومنذ الحرب العالمية الثانية، تضعف وتتراجع؛ وتزداد خضوعاً للبرنامج الكوني الأميركي، بسبب الدور الأميركي في الحرب العالمية الثانية، ونتيجة ما يسمى «خطر الشيوعية»، وضرورة مواجهته، وقيام شعوب المستعمرات بثوراتها الوطنية والديمقراطية؛ وتهديدها المصالح الإمبريالية. وفي الميدان الثالث، توقف الصراع مؤقتاً بانهيار منظومة الدول الاشتراكية انهياراً تاماً أمام زحف الرأسمالية من الخارج والداخل، مع نهاية الثمانينيات.

وعدنا اليوم، وبعد خمسة وسبعين عاماً من انتهاء الحرب العالمية الأولى، وقيام ثورة أكتوبر الاشتراكية، إلى عالم الهيمنة الإمبريالية، بقيادة حكومة الولايات المتحدة الأميركية. وبدأ ما يسمى هيمنة القطب الواحد، والدولة الواحدة، هيمنةً كاملةً على الصعيد الدولي.

فماذا عن الإمبريالية، عامة، والإمبريالية الأميركية خاصة؟ وماذا عن حقوق الإنسان؟

إن تاريخ الدول الإمبريالية الحديثة معروف، وهو تاريخ احتلال ونهب وقتل وتدمير، واصطناع خرائط جغرافية وسياسية واجتماعية. ورغم قيام الثورات البرجوازية الديمقراطية في الدول الإمبريالية، فإن هذا لم يغير من طبيعتها العدوانية التوسعية، ولم يبدّل من أساليب تعاملها في المستعمرات. وظل الأمر كذلك، قبل قيام عصبة الأمم، ومن ثم الأمم المتحدة، وبعدها.

وجرى التعامل مع العالم، خارج هذه الدول، على أنه أرض مشاع، أو مباحات، يحق لكل قادر أن يحتل وينهب، ويرسم الحدود، كما جرى التعامل مع السكان الأصليين، على أنهم عبيدٌ مخيرون بين خيارين، الخضوع أو الإبادة؛ أو الخضوع والإبادة معاً.

ولـم يتغير هذا النهـج، بعد الحـرب العالميـة الأولـى، رغم تصريحـات ولسـون رئيس الولايـات المتحـدة الأميركيـة، ولا تغيَّـر، بعد الحـرب العالميـة الثانيـة، رغـم نهـوض الحـركات الديمقراطيـة وحـركات التحـرر الوطنـي فـي كل أنحـاء العالـم، واضطـلاع الاتحـاد السـوفياتي بـدور أكبـر فـي السياسـة العالميـة. وهـا هـي حـرب الخليـج، تؤكـد أن هـذا النهـج لـم يتغيّـر، وأن محاولـة الخـروج علـى الخرائـط المرسـومة، تقـود إلـى حـروب إبـادة.

لقـد كان تاريـخ الإمبرياليـة تاريخـاً عدوانيـاً، ضـد الأمـم، لا يعتـرف بإرادتهـا، ولا بحقوقهـا الثابتـة، حتـى بعـد إعـلان ميثـاق الأمـم المتحـدة في هـذا المجـال، ولا يعتـرف بحقـوق المواطـن والإنسـان التـي أعلنتهـا الثـورة الأميركيـة، أو الثـورة الفرنسـية، أو ميثـاق الأمـم المتحـدة (5).

ولا يختلـف تـاريـخ الولايـات المتحـدة الأميركيـة المعاصـر، عـن تاريـخ الـدول الإمبرياليـة التقليديـة، فهـذا كان شـأن الإدارة الأميركيـة، مـع دول أمريـكا اللاتينيـة والوسـطى، ومـن ثـم مـع العالـم كلـه، ولمـا كانـت الكتـب والدراسـات التـي تكشـف التاريـخ الإجرامـي لـلإدارة الإمبرياليـة كثيـرة، فإنـا سـنكتفي ببعـض الإشـارات الضروريـة.

وهنـاك اتفـاق أن الإدارة الاميركيـة، ومنـذ 1939، تلعب دور «شـرطي العـالم» (6). وكـانـت الإدارة الأميركيـة، كلمـا خرجـت من عزلتهـا، ودخلـت أرجـاء العالـم «بـات أمنهـا القومـي فـي خطـر دائـم»، وبـات مـن الضـروري «أن تـواجـه الأخطـار مبكـراً، وفيمـا وراء البحـار» (7).

ورأى قـادة أمريـكا، فـي صيـف 1945، ورغـم دور أمريـكا فـي الحـرب العالميـة الثانيـة، أن عليهـم أن يخشـوا علـى المستقبل، مـن ثلاثـة أسـباب: الأول: كان سياسـياً؛ وهـو إمكانيـة ظهـور هتلـر جديـد، هـذا الـدور الـذي بـدا أن سـتالين سـيضطلع بـه. الثانـي: وكان تكنولوجيـاً: لأن السـر الـذري، يمكـن ألا يحتفظ به أبداً، ويشير تـطـويـر الألمـان لسـلاح الصـواريخ أن المـدن الأميركيـة فـي الحـرب القـادمـة سـتكون أهدافـاً. الثالـث: وكـان اقتصـاديـاً: لأن مجيء السـلام، سيحمل معه عودة الأزمـة الاقتصـادية (8).



وكانت مواجهة هذه الأخطار، تتطلب ترسيم عالم ما بعد الحرب، ليصبح الاقتصاد الحر، مع باب مفتوح للتجارة، القاعدة وليس الاستثناء (9).

وفي ظل مثل هذه الأفكار والشعارات، امتدت القواعد الأميركية في العالم. وإذا كان عدد الجيش 185 ألفاً، سنة 1939، فقد أصبح مليوناً ونصف المليون، بعد ثلاثين عاماً. وباتت الميزانية أكثر من مئة مليار، وبات للولايات المتحدة الأميركية قواتٍ في مئةٍ وتسعة عشر بلداً (10).

ومن الطبيعي أن يقود ذلك إلى زيادة دور المجمّع العسكري، و«إلى قيام وضع، يميل فيه الأميركيون لإيجاد حلول عسكرية للمشاكل السياسية» (11).

وأدت هذه السياسة إلى اعتبار العصر عصراً أميركياً: «ونظر الساسة إلى مناطق يمكن أن يستقر النفوذ الأميركي فيها. ونظر رجال الأعمال إلى أسواق مربحة، ومصادر جديدة لخامات رخيصة، وبحث العسكريون عن قواعد فيما وراء البحار. وكلهم وجدوا ما يريدون، عندما افتتحت أمريكا برنامج توسع بلا حدود كامنة فيه» (12)، واقترن ذلك كله «بالنمو الفلكي للمناطق المعرّفة بأنها مناطق مصالح أميركية حيوية» (13).

ويعالج نعوم تشومسكي سياسة التدخل والعدول هذه، فيردها إلى مخطط وضعه فريق من الخبراء، خلال الحرب العالمية الثانية 1939-1945، أسمي فريق دراسات الحرب ـ السلم. وقد أسمي التصور الذي وضعوه «تخطيط والمنطقة العظمى». وكما أوضح أحد المخططين، فإن هذه المنطقة العظمى، يجب أن تكون الإقليم «الضروري استراتيجياً للتحكم بالعالم». وتشمل هذه المنطقة: « نصف الكرة الغربي، «الشرق الأقصى»، والإمبراطورية البريطانية السابقة... أوروبا الغربية والجنوبية، والمناطق المنتجة للنفط في «الشرق الأوسط». وفي الحقيقة، أنها يجب أن تضم كل شيء، إذا كان ذلك ممكناً».

وقد وضعت خطط مفصلة لأقاليم خاصة، من المنطقة العظمى، وللمؤسسات الدولية أيضاً التي كان عليها أن تنظمها، وتضبطها، وتخضعها للمصالح الداخلية للولايات المتحدة الأميركية.

ويرى تشومسكي أن عدم فهم «هذا التصور الجيوسياسي، يجعل الحظوظ في فهم ما يجري في العالم ضعيفة نسبياً». ويعرض تشومسكي، ضمن هذه الرؤية، سياسة الولايات المتحدة الأميركية في فيتنام، وجنوب أمريكا والعالم، ويكشف المذابح والفظائع في أكثر من مكان. ففي فيتنام، تركت الحرب 1965-1975 ثلاثة ملايين من القتلى. وفي إندونيسيا تركت المذبحة سبعمئة ألف، وهكذا في أماكن عديدة أخرى.

ويحاول تشومسكي أن يفسر أسباب هذه السياسة، فيتحدث عما جرى لجرينادا قائلاً: «وهكذا، على سبيل المثال، بمجرد أن بدأ نظام بيشوب في جرينادا يقوم بحركات بناءة، أصبح الهدف الفوري لعداوة أميركية هائلة، لا لأن تلك البقعة الصغيرة في الكاريبي تمثل خطراً عسكرياً كامناً، أو أي شيء من هذا القبيل. إنها تهديدٌ في بعض المجالات الأخرى: فإذا كان بلدٌ صغيرٌ معدمٌ، بلا موارد طبيعية، يستطيع البدء بتخليص نفسه، من نظام العوز والاضطهاد الذي ساعدنا على فرضه، فإن بلاداً أخرى، تملك المزيد من الموارد، يمكن أن تغرى لتحذو حذوه».

ويصل تشومسكي إلى النتائج التالية: 1- أن الحرية التي يُدعى لها، وهي حرية أن تَنهَب، وهي وحدها الحرية التي تعني شيئاً، وما عداها، فإنها في الأغلب للعرض. وعلينا، لكي نحتفظ بحرية النهب والاستغلال، أن نعارض بانتظام تحقيق الديمقراطية، ورفع مستوى المعيشة، وحقوق الإنسان. 2- أن المعادلة المتعلقة بحقوق الإنسان تقول: «كلما ساء مناخ حقوق الإنسان، كلما ازدادت المساعدات الأميركية للأنظمة المعنية. ولذلك، فإن: السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأميركية مبنية، في الحقيقة، على مبدأ أن حقوق الإنسان غير واردة، ولكن تحسين مناخ العمليات الاقتصادية الخارجية واردٌ إلى أقصى الحدود».

ويتساءل تشومسكي: كيف يمكن أن يتحسن المناخ للعمليات الاقتصادية في بلد من البلدان النامية؟ ويجيب: «حسناً. إنه من السهل عليك أن تقتل الكهنة، وأن تعذب منظمي الفلاحين. وأن تدمر المنظمات الشعبية، وأن تنظم القتل الجماعي والقمع الجماعي، لتمنع أي تنظيم شعبي» (14).



إن سياسة الإدارة الأميركية واضحة في النظرية والممارسة. فعلى الصعيد النظري، تطالعنا الصحف والكتب ونشرات الأخبار، وبرامج التلفزيون يومياً، بما يؤكد هذه السياسة. وعلى الصعيد العملي، تواجهنا السياسة الأميركية كل يوم بجديد، من حروب التدخل والعدوان، إلى سياسات التآمر والقتل، إلى سياسات الحصار والتجويع. وتنكشف في هذه الأيام وثائق جديدة عن السياسة الأميركية، تتعلق بإبادة الجنس البشري. وتعود فكرة هذه الوثائق، إلى سنة 1969، حين أعلن جورج بوش، عضو الكونغرس عن تكساس، في مجلس النواب، بتاريخ 1969/7/21 أن خطر النمو السكاني البشري، ما لم «يقَر به، ويعالج، فإن المجاعة والطاعون، والحرب، ستحله لنا».

وما لبث مجلس الأمن القومي الأميركي، أن أصدر وثيقة بتاريخ 1974/12/10، بعنوان: «مذكرة الأمن القومي الدراسية 200، مضاعفات النمو السكاني العالمي الشامل على أمن الولايات المتحدة الأميركية ومصالحها وراء البحار». وقد أعدت هذه الدراسة لجنة من الأمن القومي بإشراف هنري كيسنجر الذي كان آنذاك وزير الخارجية، ومستشار الرئيس للأمن القومي. وكان الرئيس نيكسون قد أمر بإجراء هذه الدراسة بتاريخ 1970/8/10. وبعد إعداد الدراسة، طلب كيسنجر تبنّيها في 1975/10/16. فوافق عليها الرئيس فورد، وأصدر مجلس الأمن القومي القرار 314 الذي اعتمد الدراسة وتوصياتها في 1975/11/26. ووقع القرار مستشار الأمن القومي آنذاك برنت سكوكرفت وأرسلت رسمياً إلى وزارات الخارجية، والخزانة، والدفاع، والزراعة، ورئيس هيئة الأركان المشتركة، ومدير وكالة المخابرات المركزية لعمل ما يلزم.

ويعدد التقرير (NSSM 200) ثلاثة عشر بلداً أساسياً فيها «مصالح سياسة واستراتيجية خاصة للولايات المتحدة تتطلب فرض سياسة ضبط النسل أو تخفيضه». وهذه البلدان هي: الهند، بنغلادش، باكستان، نيجيريا، المكسيك، إندونيسيا، البرازيل، الفلبين، تايلند، مصر، تركيا، إثيوبيا، وكولومبيا. ويعود الاهتمام بهذه الدول إلى: «أن أثر النمو السكاني فيها، يرجح احتمال الزيادة النسبية في دورها السياسي والعسكري والاقتصادي الإقليمي، وحتى قوتها

العالميـة». ويعـود أيضـاً إلـى أن إنقـاص نمـو سـكان هـذه الـدول الغنيـة بالمعـادن، «سـيجعل الوصـول المستمر لمثل هذه الموارد، أكثـر قـابليـة للاعتمـاد عليـه من الناحيـة السياسية». وتخشـى الدراسـة أن يقـود عـدم الاسـتقرار السياسـي فـي هـذه البلـدان، نتيجـة عـدم خضوعهـا، إلـى «احتمـال أن تصـادر التنـازلات للشـركات الأجنبيـة، أو أن تخضـع للتدخـل التعسـفي».

وتضيف الـدراسـة عـامـلاً آخـر لمخـاطـر النمـو السكاني، وهو «ميـل هـذه الـدول لـزيـادة مطالبهـا للتطوير الاقتصـادي». وتعطـي الـدراسـة بنغـلادش مثـلاً. ذلك أن بنغـلادش: «مؤيـد صلـب لمواقـف العالـم الثالـث، إذ تدعـو إلـى توزيـع أفضـل للثـروة العالميـة، وتنـازلات تجاريـة واسـعة للأمـم الفقيـرة. وكلمـا ازدادت مشـاكلها وفشـلت قدرتهـا فـي الحصـول علـى المعونـات فـي المواكبـة، فـإن مـن المحتمـل أن تصبـح مواقـف بنغـلادش فـي القضـايـا الـدوليـة أكثـر جذريـة، وبالضـرورة فـي معارضـة مصالـح الولايـات المتحـدة، علـى القضـايـا الأساسـية، حيـن تسـعى لتصطـف مـع آخريـن لفـرض المسـاعدة الملائمـة» (15).

وبهذا يفسر أكثر من بـاحث حرب الخليـج الأخيرة (16).

إن هـذا الخـط فـي السياسـة الأميركيـة واضـح، ولقـد عكسـه مـن الناحيـة النظريـة «التقريـر الكونـي إلـى الرئيس 2000» (17)، كما عكسته دراسـة روبـرت مكنمارا: «قنبلـة موقوتـة أو خرافـة: المشـكلة السـكانية» (18). وتـؤكـد هذه الدراسـة، ما ذكرناه آنفـاً، مـن أن الزيـادة السكانية لهـا نوعـان مـن النتائـج: «الأولـى، وهـي الآثـار التـي تثقـل خطـو التـطور القومـي الاقتصـادي، والاسـتقرار السياسـي، وحقـوق الإنسـان فـي البلـدان الناميـة. الثانيـة: وهـي الآثـار فـي النظـام الدولـي، ومـن حيـث المبـدأ، تكريس الفجـوة بيـن البلـدان الغنيـة والفقيـرة، وكل مـا لـه علاقـة بالعلاقـات الاقتصـادية والسياسـية الدوليـة».

ولمكنمارا مخاوفه من حدوث تحولات سياسية عالمية.

وللوطن العربي أهميته الخاصة، ضمن إطار هذه السياسة العالمية.



ولقد أكدت كل الدراسات الأميركية، كما أكدت الوقائع العملية، كيف جرى التحول بعد فيتنام إلى ما يسمى «الشرق الأوسط». ورغم وجود «الشرق الأوسط» في «استراتيجية المنطقة الكبرى»، إلا أن وطننا أصبح ذا أهمية خاصة، منذ بداية السبعينيات. كما كان بالنسبة للقوى الإمبريالية من قبل (19).

وتقوم الاستراتيجية الأميركية في وطننا على الأسس التالية:

1- «الوصول المضمون، وبالشروط المعقولة، وبالأثمان المتهاودة، لنفط الإقليم، وخاصة الجزيرة العربية». ولذلك جرى تضخيم ما يمكن أن يسمى أزمة الحصول على النفط (20).

2- «بقاء دولة إسرائيل وأمنها».

3- «تحقيق مبادئ معينة، ما أمكن، بما في ذلك التسوية السلمية للنزاعات العالمية، وعدم السماح بالاستيلاء على الأراضي بالقوة، وحق الشعوب في تقرير المصير».

وهذه مصالح كبرى «...إن كل واحدة من هذه المصالح. إذا ما أخذت وحدها، تعطي الولايات المتحدة اهتماماً حيوياً بمستقبل «الشرق الأوسط». فإذا ما أخذت معاً، وإذا ما نظر بالاعتبار أيضاً إلى التفجر الشديد للنزاع العربي-«الإسرائيلي» غير المحلول، فإنها تجعل «الشرق الأوسط» المنطقة الأكثر أهمية بمفردها في العالم، من زاوية المصالح الأميركية، والأكثر خطورة» (21).

ولقد قادت هذه النظرة إلى حرب الخليج.

وفي هذه الحرب كشفت الإدارة الإمبريالية الأميركية كل أهدافها، فهناك:

1 - استراتيجية التدمير الشامل، إذ إن القصف الذي استهدف العراق استهدف أمرين: الأول: الإبادة الواسعة لأكبر عدد ممكن من الجنود، القوة الحية في المجتمع، لا وهم يقاتلون، ولا وهم في كمائنهم، بل وهم منسحبون، إثر قرار

الانسحاب. ورغم اختلاف التقديرات، فإن عدد الضحايا بين الجنود والمدنيين كبير. الثاني: تدمير البنية التحتية، وخاصة الصناعية والزراعية والعلمية والمدنية. (22)

2 - استراتيجية منع التطور السياسي والاقتصادي والقومي والمدني.

3 - استراتيجية إثارة صراع الطوائف والإثنيات.

4 - استراتيجية ضمان أمن الاحتلال الصهيوني، وإبقائه القوة الأكبر في المنطقة. ولذلك يفرض على القيادة في العراق الانسحاب بالقوة، ولا يضغط على الحكومة في الكيان الصهيوني لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة، المجحفة بحق العرب، ويطلب من الدول العربية تسليم أسلحتها. وتخزن الأسلحة في الكيان الصهيوني. (23)
5 - استراتيجية الإخضاع الشامل والهيمنة الشاملة.

وهي في النهاية استراتيجية تدمير بنية الأمة، بمنع نمو قواها الحية، وإبقائها مجزأة متخلفة تابعة.

ولذلك، وبينما استهدف الهجوم قوة العراق، ومعالم تقدمه، جرى التشديد بالمقابل على حماية أنظمة كالأنظمة في الجزيرة والخليج، ورفع دولياً علم الدفاع عن الأقلية الكردية في العراق (24). وتم الاستخفاف بإرادة جماهير الوطن العربي كلها.

وتبَينَ بوضوح أن الاستراتيجية الأميركية المعلنة، والتي أشرنا إليها، طبقت بأكثر الأساليب همجية، وأشدها عداء لسيادة الأمة، ولحقوق المواطنين العرب.

إنها الإمبريالية، وريثة كل الاستعمار الحديث.

وهي في الوطن العربي سياسة عدائية بلا حدود، وسياسة هيمنة مكشوفة، لا تعرف المواربة. ويساعدها غياب دور الاتحاد السوفياتي والصين عن مجلس الأمن، وخضوعهما للبرنامج الأميركي لاستخدام الأمم المتحدة غطاءً.



وكانت السياسة الأميركية، منذ 1957، وهي تتدخل، وتدافع علناً عن الحق في التدخل (25)، ولا ترى علاقة بين السياسة والأخلاق (26). ومن 1947 حتى 1967 كانت: «فكرة مسؤولية الولايات المتحدة الأميركية عن الأمن والحرية في كل جزء من العالم هي الحكمة السائدة لمعظم القادة السياسيين والمواطنين الأميركيين» (27).

ومنذ 1961، طرح الرئيس جون كنيدي، في خطابه الذي ابتدأ به رئاسته، سياسة الاحتواء طرحاً محدداً واضحاً. وتقوم هذه الفكرة «على الالتزام القومي في الدفاع عن طريقة الحياة غير «الكلياتية» التي يمكن أن يهددها الخطر إذا مال ميزان القوى العالمي ميلاً حاسماً نحو الاتحاد السوفياتي أو الصين، منفصلتين أو مجتمعتين» (28).

ولم تقتصر السياسة الأميركية على الاحتواء، بل قرنت الاحتواء بالاختراق، حتى استطاعت أن تسهم في زعزعة تماسك المنظومة الاشتراكية، وأن تدفع باتجاه انهيارها، سواء بانهيار دولها، أو انهيار فكرة النظام الاشتراكي والاشتراكية، ووجود معسكرين إلخ...

وبانهيار المنظومة الاشتراكية، وتراجع حركات التحرر الوطني والحركات الثورية، تفردت الإدارة الأميركية بالهيمنة، وأصبحت أكثر قدرة على التدخل، وأكثر جرأة عليه. وكان مخططو السياسة الأميركية، قد دعوا إلى النهوض بهذا الدور، معتبرين «أن وقت الخطر القادم هو فرصة مناسبة لقائد أميركي، كي ينهض للتحدي، ويستخدم قوة الولايات المتحدة الأميركية الفذة وغير العادية، فيحل المشاكل ويحول المخاطر التي تقف في الأمام» (29)، وها هو بوش يستخدم قوى الولايات المتحدة الخارقة لفرض «السلام الأميركي»، ولتكريس الهيمنة الأميركية، كما لم يحلم رئيس أميركي منذ قيام الولايات المتحدة الأميركية.

إذا كان الأمر كذلك، فاذا عن حقوق الإنسان؟

إن الإمبريالية عامة، ومن حيث هي مدّ سلطة دولة إلى خارج حدودها، هي اعتداء على سيادة أمم أخرى، وعلى حقوق مواطنيها. وقد أثبتت الإمبريالية

عامة مدى استعدادها لاغتصاب حقوق الأمم، ومدى تمرسها في مصادرة حقوق مواطني الأمم التي تحتلها، أو تخضعها. ويحفل التاريخ الحديث بجرائم الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والإسبان والبرتغاليين والروس واليابانيين ضد الأمم الأخرى؛ وضد البشرية عموماً.

وتأتي الإمبريالية الأميركية، التي تمرست على التدخل والعدوان في القرن الماضي وأوائل هذا القرن في أمريكا اللاتينية، لترث كل أشكال الإمبريالية ولتطل بوجهها الإجرامي على البشرية.

ولقد كانت القوى الإمبريالية المعاصرة عموماً، ذات وجهين وسياستين:

الأولى: داخلية، تتعلق بالمركز الحاكم، وهنا تضمن النظم بعض حقوق المواطنين، وتتيح المجال لقدر من الحريات، ضمن إطار النظام. وهذا هو وجهها الأول.

الثانية: خارجية، وتتعلق بالعلاقة مع الأمم الأخرى، وهي سياسة افتراس وعدوان ونهب، لا وازع فيها.

ولكن هذا لا يمنع هذه القوى من الحديث عن التمدين والتحديث وحقوق الإنسان.

إلا أن تجربة هذه القوى، تدل، وبلا أدنى شك على أنها كانت تصادر دائماً حقوق الأمم، وحقوق مواطنيها، وأنها كانت تستخدم كل أشكال القمع والقتل في التعامل معها. وحين كانت القوات الإمبريالية، تخرج من بلد، كانت تحرص على بقاء زمرة متسلطة فيه، تنفذ السياسات الإمبريالية. وكانت هذه الزمرة تنال الحماية الكافية لمنع الثورة الديمقراطية، وتنال من المساعدات بمقدار ما تبطش بحقوق المواطنين (30).

ولم تثبت الوقائع أن الدول الإمبريالية عامة، تصالحت مع تجربة ديمقراطية في الدول النامية. وها هي الهند، وهي تعيش تجربة ديمقراطية برجوازية، منذ الاستقلال، تحظى بأكبر قدر من التآمر والحصار كما يعرف الجميع. وإذا كانت حكومة بريطانيا، قد لعبت بوحدة الهند، فأقامت مع رحيلها دولتين: الهند

وباكستان، وأججت الصراع بين الهندوس والمسلمين، فإن الإدارة الإمبريالية الأميركية، تسعى لتقسيم الهند مزقاً، ولإثارة أوسع الصراعات داخلها. وهو ما جرى في الاتحاد السوفياتي والصين، وأماكن أخرى من العالم، وما يجري في هذه الأيام على نطاق عالمي واسع.

إن هذه الحقيقة المعروفة، لا تنكرها حتى الدوائر الأميركية الحاكمة. ولقد أشار الرئيس كارتر، إلى شيء من ذلك، في مذكراته. يقول كارتر: «وعلى كل حال، فمنذ أيام ترومان في البيت الأبيض، فإن التأييد الدائب لسياسة كهذه (أي تدعم حقوق الإنسان) كان في الغالب قاصراً. وفي معظم الوقت، فشلنا في إبراز مُثُل جفرسون وولسون، باعتبارها معلماً أميركياً... ونتيجة التأكيد الشديد الذي أعطي للمنافسة السوفياتية ـ الأميركية، أصبح العامل المهيمن في تعاملنا مع البلدان الأجنبية، أكانت تناصر خط معاداة الشيوعية أم لا. وكان الملوك اليمينيون والطغاة العسكريون، أحياناً، معصومين من أي نقد لتصرفاتهم القمعية. وكان التزامنا الظاهري، أن نحميهم من أي حركة داخلية سياسية يمكن أن تؤدي إلى حكم فريق حاكم أكثر ليبرالية».

ولا يكتفي كارتر بهذا الاعتراف، بل يضيف: «لقد انزعجت كثيراً من الأكاذيب التي أبلغ بها مواطنونا: لقد تم استبعادنا من صياغة السياسة الأميركية سياسياً وعسكرياً في فيتنام، كمبوديا، تشيلي، وأقطار أخرى؛ ناهيك عن نشاطات أخرى مزعجة لحكومتنا، مثل دور وكالة المخابرات المركزية الأميركية في تنظيم جرائم القتل العمد، وجرائم أخرى».

ويعترف كارتر بأنه قرر أن يقرن: «التأييد لحلفائنا وأصدقائنا الأكثر تسلطية، مع التشجيع الفعّال لحقوق الإنسان في أقطارهم» (31).

ويعتبر الرئيس كارتر أن الرئيس هاري ترومان كان المدافع الأقوى والأكثر فعالية عن حقوق الإنسان. ويذكر له في هذا المجال أن تشجيعه لقيام الأمم المتحدة «وثباته في وجه الضغط الكبير، لدى اعترافه السريع بأمة إسرائيل الجديدة، كانا تظاهرتين حيتين للنفوذ الأميركي في أجلى صورة» (32).

وحين وصل ريغان إلى الرئاسة، واصل الحملة من أجل حقوق الإنسان، ولكن سجِل عهد ريغان لم يختلف عن سابقيه، لا في فلسطين، ولا في السلفادور أو نيكاراغوا إلخ... وهذا ما استدعى مناقشة ذلك في الصحافة الأميركية، وفضح الدعوة الأميركية لسياسة حقوق الإنسان هذه. ومنذ الأيام الأولى له في البيت الأبيض، لم يحاول الرئيس ريغان أن يخفي احتقاره لسياسة سلفه كارتر في ميدان حقوق الإنسان.

ورغم أن قضية حقوق الإنسان، كانت قضية رئيسة في انتخابات 1980، فإن ريغان ربط نفسه بالسيدة جين كيرباتريك التي عينها فيما بعد مندوبةً دائمةً في الأمم المتحدة، مع أنها كانت ترى، وكان هذا معروفاً: «أن سياسة كارتر الأخلاقية حول حقوق الإنسان ضارة بمصالح أميركية استراتيجية».

وكان من أول قرارات ريغان، في البيت الأبيض، تعيين أرنست ليفيفر مساعداً لوزير الخارجية لشؤون حقوق الإنسان والقضايا الإنسانية، مع أن المذكور اقترح ألا يكون تشجيع حقوق الإنسان في الخارج مسؤولية الولايات المتحدة.

وفي هذا الوقت كتب حوالي سبعين من رجال الدين البارزين رسالة إلى ريغان، بعد انتخابه ليعبروا عن خشيتهم لأن: «الحكومات العسكرية في بلدان عديدة، يرون انتخابكم بمثابة ضوء أخضر» لانتهاك حقوق الإنسان. وما لبث ألكسندر هيج، وزير الخارجية، أن صرّح بعد قليل من بدء رئاسة ريغان أن: «الإرهاب الدولي سيأخذ مكان حقوق الإنسان في اهتمامنا، لأنه أقصى الإساءات لحقوق الإنسان».

ولذلك، ما إن بدأ ريغان رئاسته، حتى بدأ يحث الكونغرس على تخصيص المساعدات العسكرية للأنظمة في الأرجنتين والتشيلي وجواتيمالا وأورغواي التي حرمت منها في عهد كارتر، بسبب إساءاتها لحقوق الإنسان...، وعاد وزير الخارجية هيج، فألقى خطاباً، في ربيع 1981، أكد فيه أن قضية حقوق الإنسان، ستستخدم سلاحاً ضد الأنظمة الشيوعية المعادية (33).



وهناك الكثير مما يمكن أن يقال في مجال غطاء الاستخفاف بحقوق الإنسان، والانقلاب عليها (34).

وهكذا كانت سياسة حقوق الإنسان مجرد لممارسة التغلغل السياسي والاقتصادي، ولمهاجمة الحكومات المعادية، ولحماية الحكومات المعادية لحقوق الإنسان. وكان الهدف دائماً حرية الاغتصاب والنهب وقتل البشر، وتدمير كل عوامل البناء والاستقلال في الدول الأخرى.

ولقد كانت هذه السياسة، بالنسبة لنا نحن العرب، ومنذ سنة 1957 سياسة «ملء الفراغ في الشرق الأوسط» التي تضمنت تأييد الكيان الصهيوني بلا حدود، وحماية غزواته ضدنا، وتمويل مستوطناته ومصانع أسلحته. كما أنها كانت سياسة محاربة القوي القومية والديمقراطية، لمصلحة القوى الأكثر تخلفاً وعداءً لحقوق الأمة، وحقوق المواطنة.

وظهرت هذه السياسة واضحة في الموقف العدائي من جمال عبد الناصر، والمقاومة الفلسطينية، وسياسة التحرير والبناء في كل الوطن العربي، كما كانت سياسة حماية للتخلف والتجزئة والتبعية. وتبدو هذه السياسة بكل أبعادها، في حرب الخليج، وما يتلوها، من محاولة لاحتلال الأرض، وتقسيم الشعب، وضرب المعالم الحضارية، ونهب الثروات بلا معيق، وفرض الاستسلام التام، أو الموت الزؤام. إنها سياسة إبادة الجنس فعلاً، كما تشير الوثائق التي أشرنا إليها...

وبمقدار ما يستطيع العرب التحرر من هذه السياسة، يستعيدون سيادة الأمة، وإرادة الشعب وحقوق المواطن. وبمقدار ما يخضعون لها، يفقدون السيادة، وحقوق المواطنة. وعليه، فإن الدعوة للتعاون مع الهيمنة الأميركية، من أجل نيل حقوق الإنسان، لا تحقق إلا التبعية والمهانة. وهذه السياسة الأميركية تحاول كل يوم أن تقنعنا ألا سلام لنا، إلا بالاستسلام لمتطلباتها التي لا تنتهي، من التسليم للاحتلال الصهيوني، إلى التنازل عن سلاحنا، ومن إعطاء العدو الأرض إلى إعطائه الماء، ومن قبول احتلال جزء من أرض الوطن، إلى قبول الهيمنة الشاملة، ومن بيع النفط بأسعار زهيدة، إلى التخلي عن الكرامة.

وماذا بعد؟ قبول البرنامج الأميركي لحقوق الإنسان العربي...!

(المراجع في الصور المرافقة)

الاستخفاف بحقوق الإنسان، والانقلاب عليها[34].

وهكذا كانت سياسة حقوق الإنسان مجرد غطاء لممارسة التغلغل السياسي والاقتصادي، ولمهاجمة الحكومات المعادية، ولحماية الحكومات المعادية لحقوق الإنسان. وكان الهدف دائماً حرية الاغتصاب والنهب وقتل البشر، وتدمير كل عوامل البناء والاستقلال في الدول الأخرى.

ولقد كانت هذه السياسة، بالنسبة لنا نحن العرب، ومنذ سنة 1957 سياسة «ملء الفراغ في الشرق الأوسط» التي تضمنت تأييد الكيان الصهيوني بلا حدود، وحماية غزواته ضدنا، وتمويل مستوطناته ومصانع أسلحته. كما كانت سياسة محاربة القوى القومية والديمقراطية، لمصلحة القوى الأكثر تخلفاً وعداء لحقوق الأمة، وحقوق المواطن.

وظهرت هذه السياسة واضحة في الموقف العدائي من جمال عبد الناصر، والمقاومة الفلسطينية، وسياسة التحرير والبناء في كل الوطن العربي، كما كانت سياسة حماية للتخلف والتجزئة والتبعية.

وتبدو هذه السياسة بكل أبعادها، في حرب الخليج، وما يتلوها، من محاولة لاحتلال الأرض، وتقسيم الشعب، وضرب المعالم الحضارية، ونهب الثروات بلا معيق، وفرض الاستسلام التام: أو الموت الزؤام.

إنها سياسة إبادة الجنس فعلاً، كما تشير الوثائق التي أشرنا إليها...

وبمقدار ما يستطيع العرب التحرر من هذه السياسة، يستعيدون سيادة الأمة، وإرادة الشعب وحقوق المواطن. وبمقدار ما يخضعون لها، يفقدون السيادة، وحقوق المواطنة.

وعليه، فإن الدعوة للتعاون مع الهيمنة الأميركية، من أجل نيل حقوق الإنسان، لا تحقق إلا التبعية والمهانة. وهذه السياسة الأميركية تحاول كل يوم أن تقنعنا ألا سلام لنا، إلاّ بالاستسلام لمتطلباتها التي لا تنتهي، من التسليم للاحتلال الصهيوني، إلى التنازل عن سلاحنا، ومن إعطاء العدو الأرض إلى إعطائه الماء، ومن قبول احتلال جزء من أرض الوطن، إلى قبول الهيمنة الشاملة، ومن بيع النفط بأسعار زهيدة، إلى التخلي عن الكرامة.

وماذا بعد؟ قبول البرنامج الأميركي لحقوق الإنسان العربي...!

الحواشي

(1) د. أحمد طربين: التجزئة العربية، كيف تحققت تاريخياً. مركز دراسات الوحدة العربية. سلسلة الثقافة القومية (14) سنة 1987

(2) David Robertson, *Dictionary of Politics*. Penguin Reference 1987. P.P. 154-155.

(3) Roger Scruton, *A Dictionary of Political Thought*. Pan Reference. 1983. P.P. 215.

(4) د. أحمد طربين. المرجع السابق.

(5) ميثاق الأمم المتحدة والنظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية. إدارة الأنباء بالأمانة العامة للأمم المتحدة. نيويورك 1965.

(6) Stephene E. Amprose: *Rise to Globalism*. American Foreign Policy 1938-1980. Penguin Books 1981. P.P. 13.

144



(7) Stephene E. Amprose: Ibid P P 14-15.
Tony Gilbert and Pierre Joris: Global Interference-The Consistant Pattern of American Foreign Policy. Liberation. P P. 6.
(8) Stephene Amprose: Ibid P.P 16
(9) Stephene Amprose. Ibid P P 17
(10) Stephene Amprose: Ibid P.P 13
(11) Stephene Amprose. Ibid P P. 17
(12) Stephene Amprose. Ibid P.P. 19
(13) Stephene Amprose Ibid P P 19
وماكسويل تايلور وآخرون: الاستراتيجية الأميركية العلية في الثمانينات مؤسسة الأبحاث العربية 1981 ص 101.
(14) Noam Chomsky: «Intervention in Vietnamand Central America» *Monthly Review* vol.37 No 4. P.P 29.
ويمكن قراءة كتب تشومسكي التالية:
Noam Chomsky: *American Power and the New Mandarins* Penguin Books 1969
Noam Chomsky: *The Fatefull Triangle* Pluto Press. 1983
Noam Chomsky. *At War With Asia* Fontana/Collins 1971.
Raphael Salkie *The Chomsky Update* Un Win Hyman 1990
(15) Kathleen Klenetsky: *The Genocidal Roots of Bush's New World Order*. Eir May 3, 1991 vol. 18 No 7 P P 24-25.
Hassan Ahmed, and Joseph Brewda Kisinger, Scowcroft, Bush Plotted Third world Genocide Eir May 3, 1991. vol 18 No 7 P.P 26-27.
(16) Kathleen Klenetsky Ibid P P 24
(17) Gerald O Barney (Study Director): The Global 2000 Report to the President. Penguin Books 1982
(18) Robert S Mc Namara: «Time Bomb or Myth The Population Problem». *Foreign Affairs* Summer 1984. vol 62. No 5. P P 1107-1131
كان بوش يعمل في البنك الدولي، عندما أحدثني السياسة السكانية المشار إليها.
(19) Stephene Amprose Ibid P P 20
(20) وماكس تيلور: المرجع السابق، ص 120
(21) Seth P Tillman *The United States in the Middle East* Indiana University Press 1982 P P. 50-51
(22) صرت القوات المتحالفة ستة وعشرين ألف هدف، منها جسور ومراكز علمية ومصانع ومحارن غذاء، ومعامل الكهرباء والماء إلخ وكانت هذه القوات قد تدربت على هذه الأهداف، قبل دخول القوات العراقية الكويت، حسب معلومات لجنة رمزي كلارك.
تراجع أيضاً: Kathleem Klenetsky Ibid P P 24-25
(23) نشرت الصحف تصريحات وزير الدفاع الأميركي، حول تزويد الكيان الصهيوني بالأسلحة يوم 91/6/2
(24) Daniel Schorr: «Washington Has Betrayed the Kurds before» *The Guardian Weekly* Vol 144, No 15, Weekending April 1991 P P 18
ويكشف الكاتب كيف تلعب حكومات الولايات المتحدة بالقضية الكردية.
(25) Lloyd N Cutler «The Right to intervene» *Foreign Affairs* Fall 1985 Vol. 64 No. 1 P P 96-112.

145

(26) George Kenan: «Morality and Foreign Policy», *Foreign Affairs* Winter 1985/86. Vol 64, No. 2. P.P. 205-218
وجورج كينان هذا كان رئيس العاملين في دائرة تخطيط السياسة في الخارجية، أواخر الأربعينات، كما يشير نعوم تشومسكي في دراسته المشار إليها

(27) Ray S Cline, *World Power Trends and U S Foreign Policy for the 1980'S* West view Press Press 1980 P P 158.

(28) Ray S Cline Ibid P P 158

(29) Ray S Cline Ibid P P 162

(30) Noam Chomsky Ibid P P 1-29

(31) Jimmy Carter *Keeping Faith* Collins, 1982 P P 14-151

(32) Jimmy Carter Ibid P P 142

(33) Tamar Jacoby «The Regan Turnaround on Human Rights» *Foreign Affairs*, Summer 1982 Vol 64 No 5 P P 1066-1086

(34) Charles Maechling, Jr. Human Rights Dehumanized Foreign Policy Number 52 Fall 1983 P P 118.

الصفحة الثقافية 1:

(مسلسل جزيرة غمام)

طالب جميل



يعد المسلسل المصري (جزيرة غمام) أحد أفضل ما كتب الكاتب والسيناريست (عبد الرحيم كمال)، والذي سبق وأن كتب عدة مسلسلات أخرى لاقت استحساناً ورواجاً كبيراً لدى الجمهور العربي، مثل (الخواجة عبد القادر، شيخ العرب همام، دهشة، الرحايا، القاهرة كابول) وغيرها من الأعمال الدرامية. فالكاتب، ومن خلال هذا العمل، يصل لأعلى مراحل النضج في الكتابة، حيث يرتحل بين الأزمان ويقدم عملاً متماسكاً بمضامين عميقة وخلطة من الواقع ممزوجة بالخيال



ويطرح قضايا مهمة تستدعي النقاش ويستخدم جملاً حوارية تجمع بين البساطة والصدق الذي يسكن الروح والحكمة والغطاء الوجداني العميق.

يتناول العمل قصة جزيرة متخيلة، في زمن يعود لأكثر من 100عام، يعيش أهلها تحت حكم العجمي (رياض الخولي)، وهو حاكم شديد، لكنه يدير الجزيرة بطريقة يحاول من خلالها تحقيق العدالة بين أهلها، لكن في الجزيرة ايضاً حاكم ديني يدعى الشيخ مدين (عبد العزيز مخيون)، وهو الشيخ الروحاني الزاهد الذي يتبارك فيه الأهالي ويؤمنون بحكمته وبصيرته. وفي الحلقات الأولى من العمل يموت هذا الشيخ ويورث تركته لثلاثة من تلاميذه الذين رباهم كأنهم أبناؤه، وهم محارب (فتحي عبد الوهاب)، وهو الرجل المتشدد الذي يرى أن الحكم الديني هو الحل، ويورثه الشيخ المشيخة والزعامة الدينية، ويسري (محمد جمعة)، الذي لا يمتلك من العلم إلا القليل، ويحاول التكسب من خلال القيام ببعض الأعمال القريبة للشعوذة ويورثه الشيخ بيته، وعرفات (أحمد أمين)، وهو الزاهد الراضي القنوع الذي يدعي أنه لا يملك من العلم شيئاً لكنه يمتلك كثيراً من البصيرة والأقرب لقلب الشيخ، لكن الشيخ لم يورثه سوى سبحته وكراس دوّن فيه الشيخ كثيراً من الأحداث التي جرت في الجزيرة.

يتعرض استقرار الجزيرة للتهديد نتيجة قدوم غرباء على مركب تبدو ملامحهم أشبه بالغجر، ويطلق عليهم أهل الجزيرة (طرح البحر)، يتقدمهم قائد يدعى خلدون (طارق لطفي) ومعه زوجته وتدعى العايقة (مي عز الدين). ويبدأ هؤلاء الغرباء بتهديد استقرار الجزيرة وبث الفتن وإشاعة الفوضى فيها ودفع الأهالي للتخلي عن قيمهم والذهاب نحو عالم الملذات عبر جذبهم للعب القمار وإدمان المخدرات، فيقومون، بشكل تدريجي، باختراق الجزيرة وتنفيذ أجندتهم التخريبية بالتواطؤ مع البطلان (محمود البزاوي)، وهو أحد المقربين من حاكم الجزيرة.

تزداد الصراعات في الجزيرة فيختلف العجمي مع أقرب رجال الجزيرة له، ويحاول محارب السيطرة على الجزيرة عبر سلطته الدينية، بعد أن جند بعض

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عــدد 82
01 تموز 2022

أتباعه لملاحقة الناس لإلزامهم بتطبيق الواجبات الدينية، وزج عرفات، وهو رجل الجزيرة الزاهد البسيط النقي المسالم في بعض النزاعات بهدف تشويه صورته والتقليل من مصداقيته أمام الأهالي.



ويظهر جلياً للمشاهد اعتناء الكاتب برسم شخصية عرفات الممتلئ قلبه بالمحبة، والذي يعي قيمة السبحة التي ورثها من شيخه، ويؤمن أنها أثمن ما يملكه، لكن روحه مليئة بالأرق وبالكثير من الأسئلة، وهو الذي يحمل مزيجاً متنوعاً من الإسقاطات الدينية فيها من القرآن والإنجيل والأسطورة، وهو العازب الذي يعمل نجاراً ويأنس بمجالسة الأطفال ويكثر الحديث معهم عن المحبة، وهو المنحاز للفقراء الذي لا يخشى انتقاد رجال الدين لأن منظوره للدين مختلف تماماً عن منظورهم، لكن على يديه تتحقق كثير من الكرامات والمعجزات رغم ضعف مهاراته الاجتماعية، فتظهر في شخصيته النزعة الصوفية واللمسة الروحانية، حيث يبدو واضحاً أنه يمكن تأويل ارتباط هذه الشخصية بشخصية السيد المسيح، ورغم ذلك فهو ليس معصوماً عن الخطأ وهو معرض للوقوع فيه ويمكن إغواؤه.

يتولى عرفات تحذير الناس من الزوبعة التي حذر منها شيخه مدين كلما زادت الفتن وشح الرزق في البحر وتخلى الناس عن بعضهم، وقد تحققت نبوءة الشيخ في الحلقة الأخيرة حين داهمت الزوبعة الجزيرة ولم ينجُ منها إلا من احتمى مع عرفات في كهف السفينة الذي أعده في مشهدٍ أشبه بقصة طوفان نوح.

يناقش العمل قضايا مهمة تستحق التأمل يمكن إسقاطها على القضايا التي تعاني منها مجتمعاتنا العربية في هذه الأيام، مثل علاقة الناس بالدين والتطرف

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 82 ـــدد
01 تموز 2022



والصراع على السلطة والمال، ويؤسس لفكرة تجديد الخطاب الديني التي صارت حاجة ملحة في عصرنا الحالي، أما أهم وأبرز الدلالات التي يمكن قراءتها من العمل فهي أن الجزيرة تمثل أرض فلسطين وأن الغرباء من (طرح البحر) هم الاحتلال الصهـيوني الذي دخل وتسلل إلى بلادنا بالطريقة ذاتها. ومساهمتهم بتقسيم الجزيرة وإقامة الحواجز بين قسمي الجزيرة بعد إثارة الفتنة بين أهلها يؤكد ذلك، كما أن الناجين من الزوبعة لم يكونوا سوى من آمنوا بوحدة الجزيرة ومن ساهموا بإزالة الجدار العازل بين شقي الجزيرة ومن توحدوا ضد أعداء الجزيرة.

ولعل الإشارة الأهم في هذا العمل هي أن قصة المسلسل قد بدأت بظهور الرئيس السادات بزيارة لقرية تسمى (أولاد عرفات) في سبعينيات القرن الماضي التي كانت تدعى فيما مضى بجزيرة غمام، حيث افتتح فيها مسجداً. وطلب إمام وخطيب المسجد من الرئيس أن يحكي له حكاية الجزيرة حيث تبدأ أحداث المسلسل بمشهد استرجاعي لتعود بالزمن إلى عام 1914. واختيار السادات بالذات ليظهر في هذا المشهد له رمزية كبيرة فهو الذي شرَع دخول الصهـ ـاينة إلى الأرض العربية من خلال اتفاقية كامب ديفيد المذلة ومهد الطريق للانبطاح والتسليم، وهو الذي أطلق العنان لتيار التشدد والتطرف الديني في مصر لمحاربة خصومه السياسيين وتلويث المجتمع.

الصراع بين الخير والشر يبدو جلياً وواضحاً في العمل، لكنه يسير بشكلٍ فيه كثير من الرمزية. والشخصيات تحتمل دلالات سياسية ودينية عديدة، ولغة الكاتب واضحة فيها اللمسة الصوفية الدينية على لسان بعض الشخصيات، فيما تفوح رائحة الواقعية السحرية من ثنايا المشاهد، ولا يخلو الأمر من نظرة رومانسية لتفاصيل الحياة اليومية، ومن إعلاء واضح للقيم والمبادئ على حساب القسوة والعنف.

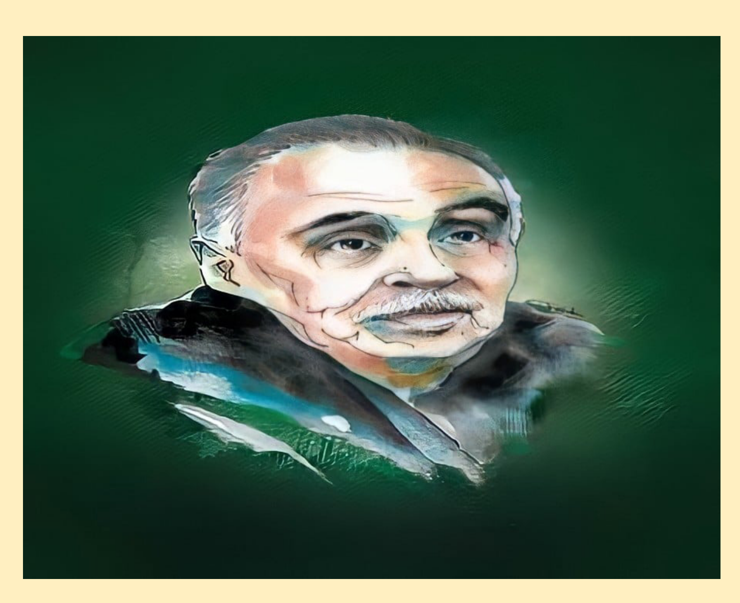
العمل من الناحية البصرية مميز، وهذا يدل على نجاح للمخرج (حسين المنباوي)، فهناك جماليات لها علاقة بالفترة الزمنية للعمل تستحق التأمل، وهناك مساحة

بصرية خلقها في مشاهد كثيرة للمتعة وهناك عالم مرئي بديع يعكس ما كتب على الورق فجعل الصورة خلابة والحكاية ممتعة والعمل متماسكاً وأشبه بملحمة شعبية تسودها أجواء شبه أسطورية. كما ساهمت البطولة الجماعية بإضفاء مزيد من الصلابة على العمل، وجاءت موسيقى (شادي مؤنس) الفلكلورية بآلات شرقية، مزج فيها بين ألوان موسيقية مختلفة كالصوفية، الصعيدية، الغجرية، فكانت ترجمة لهوية العمل وزادت من عمقه وشاعريته ومنحته جمالية واضحة.

رغم أن القصة خيالية إلا أنها قدمت بطابع تراثي، وظهر ذلك جلياً في ملابس الممثلين والديكورات التي تناسب المرحلة الزمنية، ورغم المبالغة أحياناً في الحوار المباشر وبعض التفاصيل غير المكتملة وغير الواضحة في بعض المشاهد، إلا أن كل ذلك لا يؤثر على قيمة العمل الذي قدمت فيه قصة بسيطة مفعمة باقتباسات من التراث والأديان والأساطير والفلسفة عبر عمل غني بالعناصر الفنية والبصرية، مع نجاح دقيق في رسم الشخصيات، فتح أفقاً واسعاً للتأمل وقراءة العمل من زوايا متعددة تتيح إسقاطه على واقعنا المعاصر وربطه بكثير من القضايا والأزمات التي تعاني منها أمتنا العربية هذه الأيام.

الصفحة الثقافية 2:

عن الشاعر الفارس... ناجي علوش



مريم نصرالله

هو ومضُ برقٍ لمعَ،

خيط نور لاح،

لحظةٌ من حلمٍ وصحوةٌ جارحة،

فجرت في الروحِ نبعَ عطاء، ثم مضت...

فكان الوحي، وكان الشعر.

وأما الشاعر، فمن سما خيالاً حتى رسم من الحلم عالماً ساحراً عاش فيه، ورهافةً حتى أيقظه رفيف جناح في عليا السماء وأوحى له أن يبدع، وعشقاً يتجدد مع كل دفقة، وألماً يحفر في العمق، وفرحاً، وإيماناً وصدقاً وشجناً وحباً يملأ الكون. ولما كان للشاعر ملكةٌ وموهبة طوّع فيها اللغة، وإدراكٌ ربطه بعالم الواقع، وغيريةٌ أنسته ذاته ليذوبَ في المجموع، وحميّةٌ دفعته للحق والخير والجمال دفعاً، وشجاعة ألهمته أن يهدم أسوار الكلام ويدخل غمار الحرب إذ قرعت طبولها، فإن السمو هنا قد بلغ أرفع المراتب، فاستحق بجدارة مرتبة الإنسان.

تضيق اللغة عندما تجد نفسها أمام قامة كبرى، ويصبح النقد من توافه الأمور، فمن ذا ينقد جبلاً وفارساً مغواراً؟ ومن ذا يحاسب شاعراً على رقة كلماته؟ وإنساناً على صدق مشاعره؟ فإذا كان الشاعر إنساناً فارساً ومقاتلاً وعاشقاً في آن معاً، بلغ العجز فينا أشده. ما يلي من السطور، وما بينها، هو رحلةٌ في ثنايا تجربة شعرية وإنسانية قلَّ نظيرها، وهو تحيةٌ، وامتنان، وشكر، لا يفي

صاحبها حقه في ذكرى الرحيل العاشرة، لكنها «هدية المقلّ –والمقلُّ لا يُلامُ- إن لم يأتِ بالكثير»

ناجي علوش...

المحطة الأولى – البحث:

تشكل القصائد المكتوبة بين عامي 1953/1960 البداية الفعلية لتجربة ناجي علوش الشعرية تقريباً، رغم أن لهذه المرحلة جذورها في شعر الأرض المحتلة الذي لم يجد طريقه إلى النشر أو الجمع مع باقي القصائد، لذلك يمكننا اعتبار مجموعة «يا طريق الجراح» نقطة البداية، والمجموعة الأولى التي أتت في خضم مرحلة المد القومي في الخمسينيات، بسبعٍ وعشرين قصيدة، نشهد من خلالها تبلور الموقف السياسي والقومي للشاعر، نفَس البعث متجلٍّ بوضوح، التوق إلى التجديد والانفتاح على صعيد التجربة الأدبية يتلمس طريقه مع بعض القصائد التي بدأت تخرج من القيد العمودي، فالمذهب الاتباعي أصبح يقيد جموح الشاعر الشاب، والرغبة بالتحرر والانطلاق في تجربة الشعر الحر بدأت تبصر النور من خلال بضع قصائد توحي بتغيير سيطرأ بعدئذ على مستوى الشكل والمضمون في هذه التجربة الشعرية.

الشعر في نظر علوش ثورة، وثائر هو الشعب، عنه تروى الحكايات، وله تصاغ الأشعار، إنها جماهير المد القومي التي يخاطبها في قصيدته «ملايين»:

ملايين في وطني تُسفح	****	أما شبع الربُّ والمذبحُ
أما أشبعَ الربَّ في عرشه	****	بخورُك ذاك الذي ينفحُ
وتلكَ الزغاريد والأغنياتُ	****	بأنوارِ ثورتنا تنضحُ
فديتُك ما الشعرُ والأغنيات	****	إذا لم تكن ثورةٌ تلفحُ



تزامنت هذه الفترة مع ظهور الكثير من الشعراء العرب، والفلسطينيين تحديداً، وبدا أن طابعاً أساسياً غلب على الجميع، سواء شاعرنا أم معاصروه، ونذكر هنا الراحل يوسف الخطيب، الشهـيد كمال ناصر، الراحل سليمان العيسى وسواهم من القامات التي رسمت ملامح الأدب والشعر في هذا المرحلة، إنه جيل الشباب الغاضب والمؤمن بالوحدة والحرية والاشتراكية، الشباب المتفائل والمحرض على الثورة بقصائد شعرية ذات نبرة خطابية عالية تلهب مشاعر الجماهير وتشعل الحماس في الصدور، وفي هذا الإطار تأتي قصائده الأولى في الديوان مثل: «لنا الساحل»، «في الميدان»، «قذارة الأرض»، صمتٌّ فلم يسمح»، «اعصفي يا رياح»، «الأسطورة القدسية»، «بطولاتنا والغد الأكبر»، هو الشعب»، «يا طريق الجراح»... وجميعها قصائد عمودية على غرار الشعر العربي القديم.

بيد أن نزعة التحرر من إسار التقليد، والمضي أكثر نحو الذات، كفرد من الجماعة، لا بمعزل عنها، بدأت تبدو شيئاً فشيئاً في هذا الديوان، مع الاتجاه نحو التفعيلة والنبرة الخافتة الأشبه بالمناجاة أحياناً، وقصائد مرهفة تشي بالقليل عن الجانب العاشق في شخصية الشاب الثائر، مثل «النرجسة البريئة»، «الفرار»، «حكاية كبيرة»، و«شجرة الأسرار» التي يناجي فيها محبوبته ورفيقته، المناضلة سميرة، وفيها يقول:

غيري يمنّي من يحب بالنجوم

غيري يمنّي من يحب باللؤلؤ والمرجان

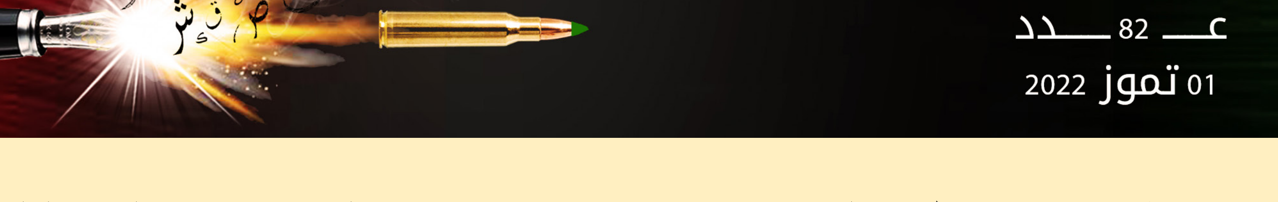
أما أنا

فليس عندي غير بعض الشعر

حصاد رحلتي وغربتي

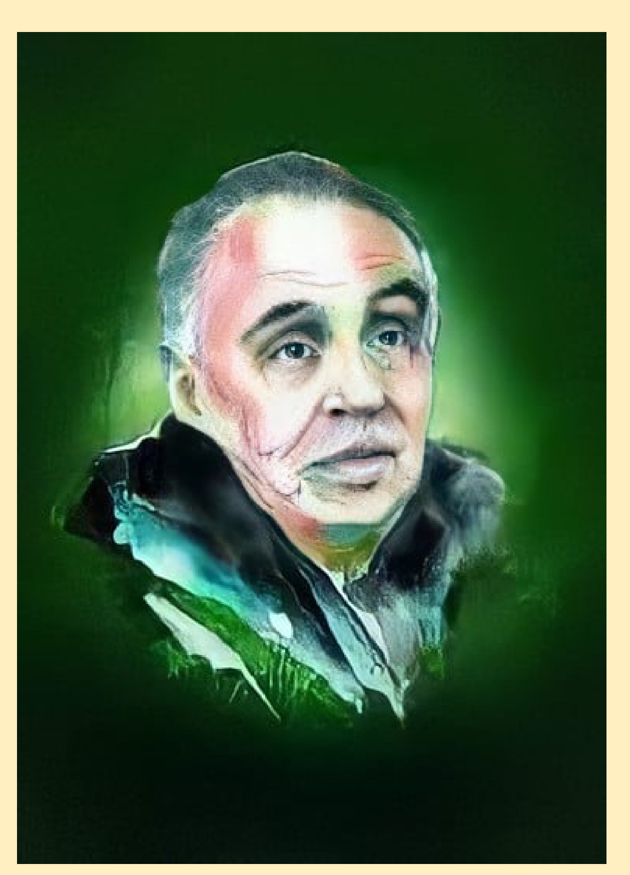
عزيزتي

هذا الذي لدي... هل تراه يستحقّ الذكر؟



تجربة إنسانية مؤثرة يخطها الشاعر في قصيدة «نحن» التي يكتبها إلى ذلك الإنسان المعذب اللاجئ البائس، سليمان قدورة، و«تحية الوداع» على أمل اللقاء إثر حديث عن صدور قرار بالإبعاد من الكويت في 1959، يلقيها على الرفاق العطاش المتعبين والجياع، و»أغنية للصامدين» يهديها لفريدة الجزائرية الثائرة ذات السنوات الثماني، و»هولاكو الجديد» وقصائد أخرى لبغداد ستكون بمثابة الخطوة الأولى في رحلة طويلة نحو التفرد بدأت تتبلور وتتألق لتكشف عن نفسها في المجموعة الثانية «هدية صغيرة».

المحطة الثانية – التحول:



ثمان وعشرون قصيدة مرتبة حسب التسلسل الزمني بين عامي 1960/1966 في مجموعة «هدية صغيرة» أظهرت تحولاً حقيقياً في تجربة ناجي علوش الشعرية، بالإضافة إلى مجموعة «النوافذ التي تفتحها القنابل» التي ضمت القصائد المكتوبة خلال ثلاث سنوات بين عامي 1967/1970 وعددها خمس وعشرون. في هاتين المجموعتين، يعتبر الشاعر الشاب أن ما يكتبه هو «محاولة في ميدان الكتابة الشعرية»، ويحكي أنه يكتب الشعر عندما يحس بحاجة ماسة لا يستطيع التعبير عنها بغير الشعر، ولا يستطيع الهروب منها، إذ يذكر في مقدمة مجموعته «النوافذ التي تفتحها القنابل» أنه فكر خلال عامي 1964/1965 أن ينصرف عن الشعر معتبراً أنه لا يملك موهبة غير عادية يرتقي فيها بتجربته الشعرية والارتفاع إلى المستوى الذي ينشده، إضافة إلى انغماسه في العمل السياسي الذي يزيد تجربته غنى، لكنه في الوقت ذاته يدخل الكثير من العوامل القاتلة للشاعرية



فيها، كما أن اهتمامه بالدراسات وعكوفه عليها يحد من قدرته على متابعة ثقافته الشعرية والنقدية.

وهنا، عذراً أبا إبراهيم، ما الشعر إن لم يكن تعبيراً صادقاً من القلب، ورحلة بحث عن الكمال لا تنتهي، وملاذاً يلجأ إليه المناضل في عتمة الليل إثر مهمة أو مطاردة أو قتال؟ لا عاش الشعر إن لم يكن هذا، وحسبُ الشاعر الحق أن يشحن صدراً بالثورة والإيمان، ويبكي عاشقاً أضناه الوجد، ويفرح متعباً ذاق مرارة الظلم والحرمان، ويعطي سجيناً في هذا الوطن الكبير أملاً بالحياة. وإلا فما هو الشعر ومن هو الشاعر؟

من جانبٍ آخر، تطغى شخصية الشاعر الاستثنائية هنا، ونعتقد أنها الدافع الأساس لهذا الشعور، فناجي علوش المقاتل والمبدئي الباحث أبداً عن الكمال، لا يرضى بأنصاف الحلول، فإما شاعر فارس وإما لا شيء، وناجي علوش ابن الفلاح البسيط، لا تأخذه نفسه بعيداً نحو الغرور، إلى حد يصل فيه أحياناً إلى عدم الاعتراف بما لديه من حس شعري مرهف يستحق التقدير، ولعل قصيدة «سيدة البستان» التي كتبها في رحيل والدته في شباط 1963، هي مثال جليٌّ عن هذا الحس المرهف والتعبير الصادق عن الوجع الإنساني:

سيدةَ البستان

لا تتركينا نحضنُ الصقيع

فالتراب يحضنُ الربيع

والبراعم

تنشقُّ عن أوراقها

تقاوم الصقيعَ والرياحَ والمطر

الليل والبحر والمطر، الشاطئ والمدينة الخراب، الجوع والريح والعاصفة، هي رموز ستزخر بها قصائد هذه المجموعة، والقاهرة وعمان ودمشق والجزائر

والكويت وهافانا، هي مدن ستترك بصمة واضحة في شعر هذه المرحلة، فالشاعر يحن إلى طفولته في الوطن السليب، ويقطع حدود السجن الكبير، ويعود في آخر الليل تواقاً ليخط شعراً، سيعيش سنوات طوال، شاهداً على كل عذابات المرحلة، وعلى البؤس والحزن والخذلان والألم، لكنه ينهي هذه القصيدة بقسم من دمشق يهديه لعمّان في شتاء عام 1970، يقول فيه:

أقسمت بالمساكن

تهدمت على رؤوس صحبنا وأهلنا

أقسمت بالثواكل

ينُحنَ عند النصب

أقسمت يا عمّان أن أقاتل

المحطة الثالثة – الجسر:

تضم مجموعة جسور الأشواق عشرين قصيدة كتبت بين عامي 1971/1977، وهذه المجموعة كما اسمها، جسر، يمده ناجي علوش بعد مسيرة طويلة من الأسفار تركت آثراً في المجموعتين السابقتين، هذا جسر يمده الشاعر فيسمح لنا بالعبور إلى ذاته شاعراً وإنساناً، طفلاً وأخاً وأباً.

الذكرى؟ إنها لحظة بارقة، شرارة، صوت، تقتحم علينا خلوة النفس وترخي بظلالها على أرواحنا... يتذكر ناجي علوش أخاه موسى الذي رحل في الطفولة، ويقول في قصيدة «وداعاً أخي موسى»:

وأذكر أنني لم أبكِ حين رجعتُ

دون أخي

ولا حدَّثتُ خلاني عن الأحزان

والحرَقِ...



فيا أحبابُ

أنا في الثلج

جاء الثلجُ

وانتظمت مواكبُه على الأبواب

وأطلقَ حزنيَ المخزون

وتلح ذكرى والدته في قصيدة «زيارة في الثلج إلى قبر أمي»، وذكرى صديقه بطل المخيم، أبي قاسم، في قصيدة «فارس الفرسان»، ويمد جسر شوق آخر يناجي فيه ابنته سلوى في قصيدتي «الغائب الآتي» و«جسور الأشواق»، وجسراً إلى بيروت الجريحة في قصيدة يهديها إلى ابنه إبراهيم الذي يعيش ملحمة بيروت مع كل أبناء جيله، «بيروت تولد في العاصفة»، وجسراً إلى فلسطين في قصيدته «صامداً سأظل»، والتي يقول فيها:

حنانيكِ...

بيني وبينكِ

شوقٌ وتوقٌ، وحلم لقاء

وبيني وبينكِ سدٌّ

من الصخرِ والقهرِ والحيرةِ القاهرة

وتمد قصيدة «الدمعات التي خبأتها العيون» جسراً إلينا نحن، سنعبره، وفي كل خطوة صورة من حياة ناجي علوش، هل هي قصيدة أم رحلة في خبايا نفسه؟ هل تصف حاله أم حالنا؟ إنها مرآة روحنا الكسيرة، فهل هنالك ما هو أبلغ؟ يأخذنا ناجي علوش نحو مستوى آخر في هذه التجربة الشعرية، إنه المستوى الذي يجتمع فيه وجعنا بوجعه، ويمتزج فيه الخيال بالحقيقة، ويختفي فيه حاجز الفصل بين اليوم والأمس، ويتلاشى فيه الفاصل بين جوانب شخصية الشاعر، فهو الفارس، والجائع، والشاعر، والثائر، والعاشق، والضائع، وهو نحن إذ يقول:

وأنا هائم

حائر

ثائر

علمتني الشجون

أن أرى الخفقات الكسيرة واللهفات الكسيرة

أن أرى في العيون الدمعات التي خبأتها

العيون...

المحطة الرابعة – التجلي:

إذا قلنا إن المرحلة الأولى كانت مرحلة تبلور الموقف السياسي والقومي للشاعر على الصعيد الإنساني، فإن المرحلة الرابعة التي تجلت في مجموعته الخامسة «عن الزهر والنار» هي –بلا شك- مرحلة تبلور ذاته الشعرية على الصعيد الأدبي بأبهى صورة في سبع عشرة قصيدة كتبت بين عامي 1977/1989، بالإضافة إلى قصائد «أغادير» وعددها سبع.

وأنا الفارس الصعبُ

في جسدي كلُّ جرحِ القبيلة

في خلدي كلُّ أشعارِها

ولقد علمتني القبيلة

أن أعشق المهرة الجامحة

في أروع ما كتب من شعر، تروي قصائد «المهرة» حكاية الشاعر الفارس، الشاعر العاشق، والشاعر المقاتل، وهو القادر بلغة سلسة وبسيطة، أبعد ما يكون عن الاستعراض، أن يأسرنا بلطف كلماته وصدق أحاسيسه، وكأن به يقول: كما أن الغموض مذهب درج عليه كثير من الشعراء وأسرف بعضهم فيه حتى



أضحى الشعر لديهم طلاسم تستهوي «نخبة» من مدعي الثقافة، فالبساطة مذهب يليق بالشاعر إذ يكرس حياته ونضاله وشعره للجماهير.

رغم أن قصائد هذه المجموعة بأكملها هي روائع شعرية وإبداعية خالصة، مثل قصائد «أنا المودع»، «سلاماً يا أبا ناجي»، «هو النسر طار»، وغيرها، إلا أن قصيدة «محاورة مع أبي الطيب المتنبي» هي تجلٍّ ساحر لأروع ما كُتب في تجربة ناجي علوش الشعرية، تجلٍّ زاخرٌ بالمعاني، عميق وصادق حد الكمال، وإبداع شعري رفيع المستوى على صعيد الجمالية الفنية للقصيدة، فماذا بعد؟ يجيبنا ناجي علوش في كل مرة:

للنيلِ عادتُهُ

وقلبي لا تغيره الرياحُ الموسمية

فإذا تخاذلَ متعبونَ على الطريق

وخلَّفوكَ بغيرِ زادِ

فاصبر قليلاً

إن سربَك سوف يأتي

من مضارب لا تغادرها الحمية

إن الصراعَ هو الصراعُ

وأنا أصارعُ لو عصَتْ قدمٌ، ولو

كلَّت ذراعُ

والنيلُ يعرفُ وجهه البحريَّ، مهما

غيَّر الرملُ القوافي...

والنيلُ لا ينسى، ولا يلهيه عن

عطشي الضياعُ...



طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 82
01 تموز 2022

قصيدة العدد: بيروت تولد في العاصفة

ناجي علوش

«إلى ابني إبراهيم الذي يعيش ملحمة بيروت مع كل أبناء جيله»

(1)

وأصحو...

فبيروتُ تخلعُ ثوبَ المنام

وتهرعُ في الطرقِ الواسعة

وبيروتُ تكدحُ،

بيروتُ تسرحُ،

بيروتُ تُذبحُ،

بيروتُ تُذبحُ،

بيروتُ تلهثُ وسطَ الزحام



وبيروتُ تأكلُ لحمَ بنيها

وتتركُ للعابرينَ العظام

وبيروتُ تلهو بها الفاجعة

(2)

وبيروت تُبنى

وتعلي البنايات صفاً فصفاً

وتغلق أبوابها للرياح

وتأكل أشجارها الخانعة

وبيروت تمتد عبر البطاح

وبيروت تكبر في ظلها المدن التنكية

وتلتف حول خواصرها حاضرات الخيام

وبيروت تأخذ من كل فنّ

وبيروت عامرة بالتمني

ومثقلة بمنى ساكنيها

وبيروت تأكل رعباً

وتشرب خوفاً

وبيروت ترقص حتى الصباح

وبيروت معنية «بالقضية»

(3)

وبيروت حين يجنُّ الظلام

تعود إلى نفسها الضائعة

وتسأل عن لحظات السلام

فيكتظُّ مقهى

ويصخب ملهى

وتذوي مع الساهرين المُدام

ويصرخ في المقل الهاجعة

حنينٌ إلى راحة لا تزول

وخوفٌ من اليوم والغد،

والحارس البلدي الذي يطلبُ

الرسم في كل عام، ومن شرطي

يجوب الدروب، ليبحث عن

صيده المرتجى،

ومن صاحب البيت

لا يتأخر عن حقه

ليلةً

ومن قدرٍ داهم ليس يخطئ،

أو عثرةٍ من بنات الزمان

وبيروتُ آمنةٌ وادعة



وبيروتُ تعشق طعمَ الأمان

وبيروتُ صاحيةٌ هاجعة

وبيروتُ تعمي عيونَ بنيها

وتضحكُ في وجه مغتصبيها

وبيروتُ...

بيروتُ...

بيروتُ...

(4)

وبيروتُ تغفو

فينبطُّ جرحٌ

ويلتمُّ جرحُ

وبيروتُ إن كدَّرتها الجراح

بيروتُ تصفو

وبيروتُ أنهارُها لا تجفُّ

وبيروتُ حاضرةٌ وادعة

تُفوِّرُ أحشاؤها بالأماني

وبيروتُ ثائرةٌ خاضعة

(5)

وبيروتُ...

يبهرُها البحرُ، تخطفُها الريحُ

يسرقُها الغابرون

فتخلدُ للراحةِ الخادعة

وبيروتُ يقصدُها الجائعون

ليلهوا بأنوارِها الساطعة

وبيروتُ

ملاعبُ للأرجلِ الضائعة

مسارحُ للأنفسِ الضائعة

وبيروتُ...

بيروتُ...

بيروتُ...

لو تعلمون

(6)

وأصحو

وأغفو

وبيروت تصحو وتغفو

وعكا...



تغالب أغلالها الآسرة

وتبصق ناراً على غاصبيها

وتسألُنا عن رحيلِ الجليل

وعن وجع اللّد والناصرة

وعن أمةٍ حرةٍ لا تضامُ

تخلفُ أبناءَها في السلاسل

(7)

وعكا على البحر...

منذ افترقنا

تطالع في أعين العابرين

رؤىً أرّقتها

وتسألُ ريحَ الشمالِ وريحَ الجنوب

وكل الطيور التي لا تني عابرة

عن العائدين

وتذكرُ في حلمِها، نومِها،

ليلةً داهمتها

فلما استفاقت وطلَّ الصباحُ

وراحتْ تنزُّ الجراحُ

وصاحتْ ألا مَن يقاتل؟

تفرقَ في التيهِ شملُ القبائل

وعكا

على البحر

منذُ افترقنا

تضمُّ جراحاتِها وتقاتل

(8)

وبيروتُ تغفو

وتغفو العواصم

وعكا

تقصُّ ليافا

حكاياتِ ثوارِنا في الجليل

وأحلامَ أجيالِنا الطالعة

وعكا التي خلَّفوها

مع الجرح والعارِ...

ظلَّت تقاوم

وأصحو

وتغفو العواصم

وعكا التي خذلتْها

تميمٌ وقيسٌ وبكرٌ ووائل

تغالبُ أغلالَها وتقاتل



وعكا سبية

وبيروتُ ترطنً بالأجنبية

وتنتظرُ السفنَ الأجنبية

وتهتفُ للسِّحَنِ الأجنبية

(9)

وأصحو وبيروتُ تصحو
وبيروتُ تخلعُ ثوبَ المنام
وتطلقُ أحلامَها الهاجعة
فتسطعُ في الطرقاتِ البنادقُ
وتعلو المتاريس... ركناً فركناً
وأصحو
وبيروتُ تمسحُ عن وجهِها العربي
مساحيقها الزائفة...
فبيروتُ تحملُ أوجاعَ عكا
وأوجاعَ يافا
وتحضنُ أحلامَنا الراعفة
وبيروتُ تصحو
فتزهرُ في كل دربِ شقائق
وتعلو بيارق
وأصحو
فبيروتُ مزهوَّةٌ بالبنادق

وبيروتُ...

ترعفُ

بيروتُ

تهتفُ...

بيروتُ تزحفُ

بيروتُ تولدُ في العاصفة

****

عن المدينة تنتشي برائحة البارود، عن النوافذ تفتحها القنابل، وعن الشوارع تدنسها أقدام الغزاة وتمحو عارها أقدامُ المقاتلين، عن المدينة التي تموت ألف مرة، كل يوم، وتحيا بعدها ألف ألف مرة، عن بيروت التي تثور، تقاتل، ويزهر فيها الدم المقدس، بيروت التي تولد في العاصفة، كُتبتْ هذه الأبيات.

«بيروت تولد في العاصفة» من مجموعة «جسور الأشواق»، يكتبها المقاتل ناجي علوش ويهديها إلى ابنه المقاتل مع كل أبناء جيله الذين يسطرون ملحمة بيروت ذات شتاء، عام 1976.

ونعيد نشرها في «طلقة تنوير» بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيل ناجي علوش الموافق 29 تموز/ يوليو 2022.

****

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 82 ـــدد
01 تموز 2022



رسم العدد
ثورة 23 يوليو وفلسطين


المجلة الثقافية للائحة القومي العربي